
روايات مصرية للجيب
زهور
72
نبع الحب
Looloo
www.dvd4arab.com
شريف شوقي
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

هذه السلسلة ..

عندما تتحوّل حياة الفرد منا إلى صحراء جرداء ..
وعندما تجف مشاعرنا وتستحيل إلى أغصان يابسة ..
يتوق قلب كل منا إلى الحبّ .. الحبّ الذى يروى هذه المشاعر .
فيعيد إلى أوراقها الخضرة .. ويبدل صحراءها إلى بساتين مزهرة ، ورياض غناء .

إنه الحب .. الحب بمعناه الرحب : حب الحبيب .. حب الابن .. حب الأب .. حب الأم .. حب الوطن .. حب البشر ..

هذه الكلمة السحرية التى تذيب أحجار القلوب .. وتنبت الزهور اليانعة فى صخور المشاعر الصلدة ..

إنها الزهور التى ينشدها كل منا فى لحظات اليأس .. وفى لحظات الغضب.. وفى لحظات الكراهية.. وفى لحظات الجفاف.. فتشيع عبيرها الفوّاح فى ثنايانا، وتعيد الخضرة إلى قلوبنا، والربيع إلى كهولتنا، والأمل إلى حنايانا .

إن الحب بمعناه الكبير .. ومعناه السامى ، وبابتعاده عن الأنانية والرغبات والشهوات ، لهو أعظم شىء خلقه الله فى هذا الوجود !!

وفى هذا الزمن الذى طغت فيه الأطماع المادية والأنانية الفردية ، نحن نحتاج الآن لمن يسمو بمشاعرنا .. نحتاج لهذا النوع من الحب .. نحتاج لزهور نستنشق عبيرها ، فتحرك مشاعرنا ، وترقق عواطفنا ..

وفى كل قصة من قصص هذه السلسلة ، دعنا ننتقل من زهرة إلى زهرة.. فى بستان ملوه جمال المشاعر .. ورقة الأحاسيس .. وزهور الحب .

المؤلف

١ - فـارس الأحـلام ..

وقف (كامل) يلتقط أنفاسه من أثر الجهد الشاق الذى بذله منذ الصباح ، فى جمع حبات البرتقال ، من أشجار مزرعته الصغيرة .

حينما حانت منه التفاتة إلى ابنته الشابة (سلوى) .

كانت الفتاة مستغرقة فى جمع حبات البرتقال من بين فروع الأشجار ، وقد تهدلت خصلتان من خصلات شعرها القصير فوق جبينها الذى أخذ يتصبب عرقًا .

بينما تدلت أطراف بلوزتها فوق حزام البنطلون المحيط بخصرها .

تأمل الأب ابنته وهى على هذه الحال ، وقد تملكه إحساس بوخز الضمير ، فمنذ أن أتى بها إلى هذا المكان المنعزل ، وهى تشاركه هذا العمل الشاق ، دون كلل أو شكوى .. عدا نظرة الحرمان التى كان يراها دائمًا فى عينيها .. والتى تشير إليه بأصابع الاتهام .. وتشعره بالجرم الذى ارتكبه فى حقها .

لقد أتى بها إلى الوادى الجديد منذ عشر سنوات ، وعمرها لم يتجاوز الثانية عشرة ، لتقيم معه فى ذلك المكان النائى ، بعيدًا عن المدينة ، وبعيدًا عن الحياة الاجتماعية ، التى كانت تستحق أن تعيشها أى فتاة مثلها ليصبح هو كل عالمها تقريبًا .

وقد وقع اختياره على هذا المكان بالذات ، بعد أن قرر اعتزال الناس ، والتفرغ لتربية ابنته فى هذا المكان النائى .

جلس (كامل) على الأرض ، وأسند ظهره إلى جذع شجرة ، بينما عيناه تحدقان فى الأفق الممتد أمامه .. وقد عاودته ذكريات ماضيه الأليم .. وحبه القديم لـ (كوثر) .

ذلك الحب الذى ملك عليه كل حواسه ، فاستسلم له ، وجعله لا يرى الحقيقة التى كان ينبغى عليه أن يراها .

حقيقة امرأة لا تقيم وزنًا لأى قيمة من القيم التى تعارف عليها البشر .

امرأة أعماها الطمع والجشع .. فضحَت بزوجها وابنتها من أجل أنانيتها .

لا بد له أن يعترف بأنها لم تكن وحدها هى المخطئة .

لقد أحبها وتزوجها برغم ما كانت تنبئ عنه طباعها ، من أنها ليست المرأة التى تصلح لأن تحمل اسمه .. وتشاركه حياته .

لكن حبه لها جعله غائبًا عن الوعى .

أثقلت عليه بمطالبها المادية التى لم تنقطع ، فاضطر لأن يسافر ويذوق مرارة الغربة فى إحدى البلدان العربية ، من أجل أن يحقق لها جزءًا من مطالبها .

وظل يرسل لها نقودًا من البلد الذى يعمل به ، ويغدق عليها من كده وجهده ، محاولاً استرضاءها بأية وسيلة .

لكن بدلاً من أن تقدر قيمة ما فعله من أجلها ، وتضحيته فى سبيل حبه لها ، استولت على ماله الذى جمعه بالجهد والعرق ، لتضعه فى حسابها بأحد البنوك .. ثم طالبته فى النهاية بالطلاق .

وعلم بالحقيقة متأخرًا .. علم أنها قد تعلقت فى غيابه بشاب أغواها بكلماته المعسولة .. واستطاع أن ينسيها واجبها وضميرها كزوجة وأم لطفلة صغيرة .

وعندما صدمته الحقيقة طاش صوابه .. وانتابته حالة جنونية جعلته يعتدى عليها بالضرب المبرح ..

ثم قاد سيارته وهو فى حالة من اللاوعى ، ليصطدم بأحد الأشخاص ويتسبب فى موته .

ودخل السجن ليقضى به خمس سنوات كاملة ضاعت من حياته .

وفى السجن اكتملت عناصر الغدر والخيانة .

طلبت الزوجة الطلاق .. وتحقق لها ما طلبته ، بعد أن دمرت حياته واستولت على ماله .

ثم تزوجت من الشخص الذى باعت زوجها من أجله .

عاش (كامل) سنوات السجن فى عزلة عن الجميع ، وتملكه إحساس جارف بكراهية البشر خارج أسواره .

وحينما غادره لم يكن له مطلب سوى استعادة ابنته .

ولم يحتج فى سبيل ذلك إلى بذل الكثير من الجهد .. فقد سلمته الأم ابنتها بمجرد مطالبته بها .. وكأنها كانت تسعى للتخلص منها .

وأحس (كامل) بأنه لم يعد قادرًا على ممارسة أية حياة اجتماعية ، بعد هذه التجربة القاسية التى عاشها .

فسافر إلى الوادى الجديد ، واشترى هذه المزرعة الصغيرة بما تبقى له من مال ، وبرفقته ابنته ، ليقضى بها بقية حياته ، يأكل من إنتاجها ، وينفق من محصول الموالح البسيط ، الذى تدره المزرعة كل عام بالقدر الكافى لإعاشته هو وابنته .

لقد عاشت (سلوى) معه حياة قاسية .. خالية من المباهج التى تستحق أن تعيشها فتاة فى مثل عمرها ..

ولابد له أن يعترف بأنه كان أنانيًّا فى فرضه لهذه الحياة الخشنة عليها ، لكن .. ماذا يفعل وقد أصبحت هذه الفتاة هى الشىء الجميل الوحيد الذى تبقى له من دنياه الظالمة ؟

بل أصبحت كل شىء فى حياته ، بعد أن فقد الزوجة والأهل والأصدقاء . وكيف يتسنى له أن يعيش بدونها ، وهى الوحيدة التى تؤنس وحدته فى هذا المكان المنعزل ، وتمنحه الدفء العاطفى الذى يفتقده بحنان بنوتها الدافق .

ثم .. ربما كان هذا هو الوضع الأمثل بالنسبة لها فى ظل الظروف الحالية .

فأمُها لا ترحب كثيرًا بوجودها معها .. ولا أقارب لهما يمكنه أن يتركها فى رعايتهم .

وتوقف عن التفكير برهة .. كما لو كان يأبى أن يستطرد فى خداع نفسه بهذه المبررات الواهية .

فهو يعلم جيدًا ، أنها ليست سوى محاولات منه لإسكات ضميره ، الذى يؤنبه بين الحين والآخر بشدة .. بسبب هذه الفتاة المسكينة ، التى فرض عليها أن تعيش فى هذا المكان المقفر .

وأن تحرم من مواصلة دراستها ، وممارسة حياة اجتماعية سليمة .

نهض الأب من جلسته ، واقترب من ابنته ليتأملها بإعجاب والابتسامة على وجهه ، قائلاً لنفسه :

- يا لها من فتاة جملية ، إن جمالها يتحدى خشونة المكان .

لاحظت (سلوى) وجوده ، فتوقفت عن العمل وهى تنظر إليه باستغراب ، وهى ترى تلك النظرة المتأملة فى عينيه قائلة :

- أبى !

ابتسم الأب قائلاً :

- أعانك الله يابنيتى .

أحست بالاغتباط لتقديره لمجهودها قائلة :

- لقد بذلت جهدًا كبيرًا اليوم يا أبى .. فلماذا لا تذهب إلى المنزل لتستريح ؟

مسح الأب حبات العرق عن جبين ابنته قائلاً بحنان :

- لقد بذلت جهدًا أكبر .. ومن حقك أن تستريحى أنت أيضًا .

سألته قائلة :

- هل أعد لك الطعام ؟

قال لها الأب :

- إننى أقول (تستريحين) لا أن تبذلى جهدًا آخر .. ثم إننى لا أشعر بجوع الآن .

لماذا لا تعودين إلى المنزل ، وتستلقين على فراشك قليلاً ؟

- إن التاجر الذى سيشترى البرتقال .. سيحضر بعد الغد ، ولابد من أن نسرع بجنى المحصول قبل وصوله .. وإلا تركنا وذهب إلى مزارع أخرى .

ـ لقد جمعنا تقريبًا ثمانين فى المائة من المحصول ، وبإمكاننا جمع بقية البرتقال فى الفترة المتبقية على حضوره .. فالمزرعة كما ترين صغيرة ولا تحتاج لأن نقتل أنفسنا فى سبيل جنى حصيلتها من البرتقال .

هيا .. اذهبى لتستريحى فى المنزل .

ـ ما دام الأمر كذلك .. فإننى أفضل التجوال قليلاً .

ـ حسن .. ما دامت هذه هى رغبتك .. ولكن لا تبتعدى كثيرًا ، فالمكان كما تعرفين موحش .

ابتسمت (سلوى) قائلة :

ـ لا تقلق يا أبى .. فما زلنا فى وضح النهار .. ثم إن المكان برغم أنه بعيد عن العمران ، إلا أنه خالٍ من الحيوانات الضارية .

سوت (سلوى) ثيابها وشعرها .. وغادرت المزرعة وهى تسرع السير .

فقد كانت تأمل فى الحقيقة أن تتاح لها هذه الفرصة .. وخشيت أن يشغلها العمل فى المزرعة عن القيام بجولتها ، التى اعتادت أن تقوم بها خلال الأيام القليلة الماضية .

خاصة منذ أن رأت ذلك الشاب مصادفة ، وهو

يجلس بجوار أشجار النخيل ، فى تلك الواحة الصغيرة ، التى تبعد عن المزرعة بمسافة كيلو متر واحد .

لقد اعتاد أن يأتى إلى هذا المكان ، منذ ثلاثة أيام ، بصورة متكررة ليجلس بجوار النبع الصافى ، وبين أشجار النخيل ، متأملاً مياه النبع بنظرات حزينة شاردة ولعدة ساعات .

إلى أن تبدأ الشمس فى المغيب ، فينهض مغادرًا مكانه ، ليستقل سيارته الجيب ، فى صحبة ذلك الصمت المهيب الذى يحيط به .

حينما رأته أول مرة ، جلست ترقبه من بعيد ، مختفية وراء إحدى أشجار النخيل ، وكأنها ترقب كائنًا جاء من عالم آخر .. أو لوحة مدهشة .

وقد أحست بإحساس غريب لم تحسه من قبل ، ولم يسبق لها أن جربته . لقد بدا هذا الشاب بقوامه الفارع ، وجسده المفتول العضلات ، وشعره الأسود اللامع ، ومظهره الوقور .. وكأنه يشبه طيفًا مرّ بخيالها ، أو ظهر فى أحلامها ذات ليلة .

كان يبدو مختلفًا تمامًا عمن التقت بهم من الرجال هنا .. من الرعاة وتجار الفاكهة والعاملين فى

المزارع الأخرى ، أو بعض العاملين ـ الذين يمرون بالمكان أحيانًا ـ فى حقول البترول أو مجال التعدين .

كان يشبه أحد فرسان هذه المدينة التى فارقتها وهى صغيرة ، وما زالت بعض صورها تعيش فى مخيلتها .

وعاشت منذ أن رأته ، تتخيل أنه جاء ليحملها إلى هناك . يومها أعجزها الخوف والخجل عن أن تظهر له نفسها ، أو تتحدث إليه .. واكتفت بمراقبته من بعيد .

لكنها تمنت أن يأتى إلى هذا المكان مرات أخرى ، وأن تتاح لها الفرصة لرؤيته من جديد .

لم تكن تأمل فى أكثر من ذلك .. ولم تكن تطمع حتى فى أن يلحظها أو يبدى شيئًا من الاهتمام نحوها .

لقد أصبحت رؤيتها له ، هى أقصى أمانيها ، وهى المتنفس الوحيد لها ، فى ظل هذا الجفاف الذى تحياه .

كانت الشمس ترسل بأشعتها الذهبية على المكان .. ولم تشعر (سلوى) بقيظها .. إذ كانت مشغولة البال بالتفكير فى ذلك الشاب ، وهى تتساءل عما إذا كان سيأتى إلى الواحة هذه المرة أيضًا ، أم أنها لن تراه بعد ذلك .

كانت فى شوق جارف إلى معرفة السر وراء نظراته الحزينة ، والدافع الحقيقى وراء مجيئه إلى هذا المكان .

وأرادت أن تحفز نفسها ، وتستجمع شجاعتها ، لاقتحام عالمه الصامت والتحدث إليه .

واستيقظت (سلوى) من شرودها ، على صوت الفتاة البدوية (رابحة) ، وقد أخذت تناديها ، وهى تسوق أمامها أغنامها قائلة :

ـ يا ست (سلوى) .

التفتت (سلوى) إليها قائلة :

ـ أهلاً (رابحة) .

سألتها (رابحة) قائلة :

ـ لقد ناديتك كثيرًا لكنك لم تجيبينى .

ـ آسفة .. لقد كنت شاردة .

ـ ولِمَ هذا الشرود ؟

ـ (رابحة) .. هل مررت على النبع وأنت قادمة إلى هنا ؟

أجابتها رابحة قائلة :

ـ إننى آتية من هناك على الفور .

قالت لها (سلوى) متلعثمة :

- ألم ترى أحدًا هناك ؟

ضحكت (رابحة) قائلة فى خبث :

- كلا .. إن الشخص الذى تبحثين عنه لم يكن موجودًا هناك .

اضطربت (سلوى) وقد تضرج وجهها بالاحمرار قائلة :

- شخص ؟! أى شخص .

قالت لها (رابحة) وهى تواصل ضحكاتها :

- الشاب الزين .. الذى تراقبينه منذ يومين .

ارتبكت (سلوى) قائلة :

- ما هذا الذى تقولين ؟

قالت لها (رابحة) مطمئنة :

- ماذا بك ياست (سلوى) ؟ أتظنين (رابحة) .. خادمتك وصديقتك هنا تفشى السر ؟ يجب أن تثقى بى ، وتطمئنى تمامًا .

قالت (سلوى) محاولة الإنكار :

- أى سر هذا الذى تتحدثين عنه ؟ لابد أنه قد أصابك خبل .

- سامحك الله يا ست (سلوى) .. لقد رأيتك وأنت ترقبين هذا الشاب من وراء أشجار النخيل ، عند الربوة المطلة على النبع ، وأعرف أنك تميلين إليه .

قالت (سلوى) وقد أحست بأنها لم تعد تستطيع الإنكار ،

- أنا ؟!

- نعم .. لكن لماذا لا تحاولين التحدث إليه ؟ حقًا إنه يبدو متجهمًا وعابسًا دائمًا .. لكن ربما لو حاولت التحدث إليه ..

قالت لها (سلوى) مقاطعة :

- إياك أن تخبرى أبى بهذا الأمر .

- لقد أخبرتك ، أننى لن أبوح بسرك مطلقًا .. لو تعرفين مقدار حبى لك يا ست (سلوى) .

إننى أشعر بأسى .. لأنك تعيشين فى هذا المكان الذى لا يناسبك .

إننى وغيرى من الفتيات البدويات ، تعودنا الحياة فى مثل هذه الأماكن ، وحياتنا القبلية تغنينا عن الإحساس الذى تشعر به فتاة نشأت فى المدينة مثلك ، بالوحدة وخشونة الحياة هنا .

ولا أدرى لماذا يحكم عليك أبوك بالحياة فى هذا المكان ؟!

- إننى راضية بحياتى هنا .

- أتخدعيننى أم تخدعين نفسك ؟ إننى أعرف أنك تضيقين بحياتك هنا .. وأنك تتطلعين للرحيل إلى المدينة .

وربما ساعدك هذا الشاب على ذلك .. وانتشلك من تلك الحياة .

قالت (سلوى) معترضة بغضب على كلمات البدوية .

- (رابحة) .. ما هذا الذى تقولينه ؟

- إننى أحاول ..

قاطعتها (سلوى) قائلة :

- هيا اذهبى بأغنامك من هنا الآن .

مطت (رابحة) شفتيها قائلة بدلال :

- كما تشائين .. لكن يجب أن تعرفى وتتأكدى ، أن (رابحة) تحبك وتتمنى لك الخير والسعادة .

ابتسمت (سلوى) وهى تراقب الفتاة البدوية فى أثناء ابتعادها .

كانت تعرف أنها تحبها ، وأنها صادقة فى مشاعرها نحوها .

لكنها أحست بالغضب نحوها ، لأنها كشفت سرها الذى حافظت عليه ، واحتضنته بين جوانحها خلال الأيام الماضية .

أقبلت (سلوى) على الربوة العالية ، التى تطل على الواحة بشوق ولهفة ، وهى تمنى نفسها برؤيته .

لكن سرعان ما أصيبت بخيبة أمل .. عندما لم تجده جالسًا فى مكانه المعتاد ، بل رأت مجموعة من الرعاة ، وقفوا يسقون إبلهم من مياه النبع .

أحست باضطراب شديد .. واكتسى وجهها بمسحة من الحزن ، وهى تتساءل :

- لماذا لم يأت إلى النبع اليوم كما اعتاد فى الأيام السابقة ؟

أيكون قد أتى وانصرف ؟

لكنه لم يعتد أن يرحل بمثل هذه السرعة .

ربما حينما رأى الرعاة يحيطون بالنبع ، آثر الابتعاد وقرر أن يعود من حيث أتى .

أم يكون قد ملَّ الحضور إلى المكان ؟ أو ربما غادر الوادى بأسره ؟

اجترفها شعور بالأسى ، حينما وصلت إلى هذه المرحلة من التفكير .

فقد بدأت تعتاد رؤيته .. وأحست بافتقاد شديد له برغم أنها لم تره إلا بضعة أيام قليلة .

لكن هذه الأيام القليلة ، جعلتها تتعلق بهذا الشاب المجهول ، الذى لا تعرفه .. ولم تتحدث إليه .

استغرقها هذا الحزن المفاجئ وهى تتساءل فى حيرة :

ـ هل شاء لها القدر ، أن يظهر هذا الشخص فى حياتها كبرق خاطف ، ليحمل لها مشاعر لم يسبق لها أن عرفتها ، وآمالاً لم تحلم بتحققها ، ثم يختفى فجأة ، لتخمد المشاعر التى استيقظت ، وترحل الآمال التى لم تتحقق .. ولا يبقى لها سوى ظلمة حياتها الموحشة ؟

واستيقظت من مشاعرها الحزينة وأفكارها المضطربة على صوت رخيم يأتى من خلفها قائلاً :

ـ ماذا تفعلين هنا ؟

خفق قلبها بشدة .. وأحست باضطراب شديد ،

جعلها غير قادرة حتى على أن تستدير لترى من يحادثها .

لكنها اضطرت لأن تلتفت خلفها ، حينما كرر محدثها سؤاله لها .

وازداد قلبها خفقًا .. حتى إنها أحست بأنه يكاد أن يتوقف عن النبض ، فقد كان محدثها هو نفسه ذلك الشاب الذى جاءت لتراه .





٢ - لقاء النبع ..

عجز لسانها عن النطق وهى تراه ماثلاً أمامها .

فسألها قائلاً :

- هل أنت بكماء ؟

ازدردت لعابها وهى تنطق بصعوبة قائلة :

- لقد .. لقد فاجأتنى .

قال بجفاء :

- إذن .. فأنت تستطيعين الحديث .. هل تخبريننى إذن لماذا كنت تراقبيننى خلال الأيام الماضية ؟

تضرج وجهها بالاحمرار ، وقد أحست بالخجل الشديد .

إذن .. فقد كان يعرف أنها تراقبه .

لكن لماذا لم يبدُ عليه ذلك ؟ وكيف تسنى له أن يعرف ؟

سألها قائلاً :

- لماذا لا تجيبين ؟

قالت له محاولة الدفاع عن نفسها :

- إننى لم أفعل ذلك .. لقد اعتدت المجىء إلى هذا المكان من آن لآخر .. لقد أخفتنى بظهورك المفاجئ هكذا .

حدجها بنظرة فاحصة قائلاً :

- حقًا .. أتظنين أننى لم أكن أراكِ ؟ ماذا تريدين منى ؟

قالت له بصوت مضطرب :

- ما الذى تريده أنت منى ؟

قال لها بجفاء :

- إننى لا أحب المتطفلين .

قالت له محتجة :

- لكنى لست متطفلة .. أنت الذى تطفلت علىّ الآن .

نظر إليها وفى عينيه تساؤل قائلاً :

- إننى لا أدرى .. ما الذى تفعله فتاة مثلك هنا ؟

أجابته قائلة :

- إننى أقيم على بعد كيلومتر من هنا .

قال لها بدهشة :

- فى هذا المكان النائى ؟

- إننى أعيش مع أبى فى المزرعة التى نمتلكها .
سألها قائلا :
- وهل توجد مزارع هنا ؟
- نعم .. توجد عدة مزارع متفرقة إحداها يمتلكها أبى .
سألها قائلاً :
- هل أنت من الوادى الجديد ؟
أجابته قائلة :
- كلا .. إننى من القاهرة .
قال لها بدهشة :
- من القاهرة !! وما الذى أتى بك إلى هذا المكان ؟ هل أنت فى زيارة مثلاً لأبيك ؟
- لقد قلت لك إننى أعيش معه فى المزرعة .
عاد ليسألها قائلاً :
- ومنذ متى وأنت تعيشين فى هذا المكان ؟
أجابته قائلة :
- منذ عشر سنوات .
قال لها بتعجب :
- عشر سنوات .. عشر سنوات وأنت تعيشين هنا .. هل سافرت خلالها إلى القاهرة ؟

قالت له وهى تنكمش بجوار شجرة النخيل :
- كلا .
سألها قائلاً :
- ما اسمك ؟
أجابته فى براءة :
- (سلوى) .
مد لها يده مصافحًا وهو يقول :
- أعرفك بنفسى .. أنا اسمى (عماد) . مهندس كيميائى وأعمل فى مجال التنقيب عن البترول .
نظرت إلى يده مترددة وقد اعتراها شىء من الخوف .. ثم ما لبثت أن مدت له يدًا مرتعشة لتصافحة بها .
نظر إليها وهو يبتسم للمرة الأولى قائلاً :
- هل أنت خائفة منى ؟
هزت رأسها نفيًا .
فقال لها :
- إذن لماذا ترتجفين هكذا ؟ هيا اجلسى ودعينا نتحدث .

ظلت منكمشة فى مكانها ، وعلى وجهها أمارات التردد .

فقال لها مشجعًا ، وهو ينظر إلى مكان النبع ، وكان الرعاة قد فارقوه :

ـ أترغبين فى أن نجلس قليلاً بجوار النبع ؟ أعتقد أن الجلوس هناك سيكون أفضل .

لم تجبه .. فعاد ليقول لها وهو يتقدمها :

ـ هل تمانعين ؟

استجابت لدعوته ببطء مترددة .

ثم سرعان ما وجدت نفسها تسير بجواره ، وهى ترقبه بنظرات مختلسة .

كان الأمر يبدو بالنسبة لها أشبه بالحلم .

فها هو ذا الرجل الذى ظل يشغل تفكيرها خلال الأيام الماضية .. والذى كانت تسعد برؤيته من بعيد .. الرجل الذى احتل مساحة كبيرة من خيالها وأحلامها .

ها هو ذا يسير بجوارها ويحادثها ، ويطلب منها مجالسته .

توقف أمام بقعة خضراء بجوار النبع .. قائلاً :

ـ هذا هو مكانى المفضل .. لا بد أنك قد عرفت ذلك من خلال مراقبتك لى خلال الأيام الماضية .

قالت له محتجة :

ـ قلت لك إننى لم أكن أراقبك .

ابتسم قائلاً :

ـ أظن أنك كاذبة .

قالت له متلعثمة :

ـ كيف .. كيف تنعتنى بذلك ؟

ـ لأن هذه هى الحقيقة .. هيا .. لماذا لا تجلسين ؟

قالت له وهى تحاول إخفاء ارتباكها بالتظاهر بالغضب :

ـ لا أرغب فى الجلوس .

ابتسم قائلاً :

ـ لا بأس إذن .. من أن نبقى واقفين .

تأملها برهة قبل أن يستطرد قائلاً :

ـ لابد أنك لم تنالى حظك من التعليم .. ما دمت قد عشت كل هذه السنين دون أن تفارقى ذلك المكان .

قالت له بصوت خافت :

ـ لقد حصلت على الشهادة الابتدائية من القاهرة .. ثم أكمل أبى تعليمى بنفسه .. فكان يحضر لى الكتب لنستذكرها معًا .

قال لها وفى عينيه نظرة تعاطف حقيقية :

- لم يكن هذا ليغنى عن أن تنالى حظك من التعليم الرسمى .. كان من الممكن أن تكونى فى الجامعة الآن .

قالت له وقد أحست بأنه يستصغر شأنها :

- إن أبى يحتفظ بمكتبة كبيرة فى منزلنا بالمزرعة .. وقد قرأت كل الكتب الموجودة فيها تقريبًا ، حتى أصبح لدىَّ قدر من الثقافة يفوق مثيلاتى ممن حصلن على شهادات جامعية .

سألها قائلاً :

- لماذا اختار أبوك هذا المكان لتعيشا فيه ؟

قالت له بصوت ينطوى على رنة من الحزن :

- لقد آثر أبى العزلة والابتعاد عن الناس .

- إذا كان هذا هو اختياره .. فلماذا فرضه عليك ؟

- لأننى ابنته .. وينبغى أن أكون معه حيث يكون .

- ووالدتك ؟

- لقد ماتت .

- أليس لكما أى أقارب بعيدين عن هنا ؟

- كلا .. لماذا تسأل هذه الأسئلة ؟

- لأنك تثيرين فضولى .

جلست على الأرض العشبية المجاورة للنبع قائلة :

- حسن .. إذا كنت تريد أن تجلس فلنجلس ، لأننى تعبت من الاستمرار فى الوقوف هكذا .

ابتسم وهو يجلس بجوارها قائلاً :

- آخر ما كنت أتوقعه ، هو أن ألتقى بفتاة مثلك هنا .

سألته قائلة :

- لماذا ؟ هل أبدو مختلفة عن الآخرين هنا ؟

- إن هؤلاء الآخرين الذين تتحدثين عنهم ، يعدون على أصابع اليد الواحدة .. ثم إنك تبدين مختلفة بالفعل .

- هل أستطيع أن أسألك بدورى عن سبب مجيئك إلى هذا المكان ؟

صمت برهة قبل أن يقول :

- أظن أن هذه الواحة هى أجمل بقعة فى هذا المكان .. لذا فمن الطبيعى أن يحب المرء المجىء إليها .

نظرت إليه قائلة :

ـ لا أظن أن هذا هو السبب الحقيقى .

التفت إليها بدهشة قائلاً :

ـ لماذا تقولين ذلك ؟

ـ لأن تلك النظرة الحزينة الشاردة ، التى كنت أراها فى عينيك وأنت جالس بجوار النبع ، تنطوى على ما هو أكثر من ذلك .

قال لها بصوت يغلب عليه الحزن :

ـ هأنت ذى قد اعترفت بأنك كنت تراقبيننى فى أثناء جلوسى هنا .

قالت له وهى تخفض بصرها خجلاً :

ـ نعم .. لقد فعلت ذلك .. أظن أنه لا بد لى أن أعترف .

قال لها محاولاً التخفيف من إحساسها بالحرج :

ـ ولماذا أنت خجلة هكذا ؟

ـ لأننى أظن أن هذا لم يكن تصرفًا لائقًا من جانبى .

ـ من الطبيعى أن رؤيتك لى قد أثارت فضولك .

ـ هل تنوى البقاء هنا لفترة طويلة ؟

ـ كلا .. إننى سأعود إلى القاهرة خلال الأسبوع القادم .

فقد جئت فى مهمة عمل قصيرة .. أما عملى الأساسى فهو فى القاهرة .

قالت له وقد اعتراها الحزن :

ـ إذن فلن تأتى إلى هذا النبع بعد ذلك .

قال لها وقد لحظ ملامح الحزن المرتسمة على وجهها :

ـ هل يهمك أن آتى ؟

قالت له بتلقائية :

ـ نعم .

سألها قائلاً :

ـ لماذا ؟

هزت كتفيها قائلة :

ـ لا أدرى .

ـ ربما لأننى الرجل الوحيد الذى التقيت به فى هذا المكان غير أبيك .

ـ كلا .. لقد رأيت الكثيرين من الرجال الذين تصادف مرورهم بهذه المنطقة بالطبع .. فأنا لا أحيا فى جزيرة معزولة .. كما أننى ذهبت إلى مدينة الوادى الجديد عدة مرات ، وصادفت أشخاصًا آخرين .. لكنك تبدو مختلفًا .

- كيف ؟
- لا أدرى .. هذا هو ما أحسه .. أنت تبدو مختلفًا على الأقل بالنسبة لى .
تأملها قائلاً :
- أنت أيضًا تبدين بالنسبة لى كذلك .. إنك تذكريننى بالبراءة .
البراءة التى أصبحت مفقودة فى حياتنا .
ربما كان وجودك فى هذا المكان الجاف البعيد عن حياة اجتماعية حقيقية ، فيه شىء من الإجحاف بالنسبة لك .. لكنى أظن أنه قد أبعدك عن الكثير من عيوب وشرور البشر .
تطلعت إليه فى تساؤل قائلة :
- وكيف أمكنك أن تحكم على بذلك .. ونحن لم نلتق إلا منذ عدة دقائق ؟
- أظننى لا أحتاج لأكثر من هذه الدقائق القليلة ، لكى أكتشف هذه الحقيقة .
قالت له وهى تحاول أن تتجاسر بمواجهة نظرات عينيه اللتين تحدقان بها :
- أنا أيضًا لم أحتج لوقت طويل ، لكى أقرر أنك

تعانى أزمة ما ، ولكى أرى ذلك الحزن الدفين فى عينيك ، برغم الابتسامة التى تحاول أن ترسمها على وجهك .
ازدادت دهشته وهو يتأملها .. وقد بدا وكأنه يكتشف المزيد فى هذه الفتاة الجالسة أمامه مع مرور الوقت قائلاً :
- كيف استطعت أن تقررى ذلك ؟
- تمامًا .. كما استطعت أنت أن تحكم علىّ بالبراءة .. أظن أننا متشابهان .
فوجئ بتلقائيتها .. فظل يحدق فيها لبرهة .. ثم غادر مكانه وأولاها ظهره ، وهو يستند إلى جذع نخلة قائلاً :
- كلا .. لا أظن أن هذا صحيح .
نهضت بدورها لتقف بجواره قائلة :
- ما الذى يجعلك تظن ذلك ؟
التفت إليها قائلاً :
- لأنك بفطرتك السليمة ، تستطيعين الحكم على الأدوار حكمًا صحيحًا ، وغالبًا ما يكون صادقًا .. أما أنا فبرغم علمى .. وتجاربى ، لم أستطع أن أحكم على

فتاة عرفتها حكمًا صحيحًا .. وتركت غشاوة الحب تعمينى عن أن أراها فى صورتها الحقيقية .

قالت له بتعاطف :

ـ ألا يقولون إن الحب أعمى ؟ إذن فهذا هو سبب وجودك هنا .. إنك تحاول الهرب .. الهرب من قصة حب فاشلة .

نظر إليها بتمعن قائلاً :

ـ من أين لك معرفة هذه الأمور ؟ لا أظن أن فتاة مثلك قد مرت بتجربة حب ، أو عاشت مثل هذه المشاعر فى مكان كهذا .

ابتسمت فى مودة قائلة :

ـ لست بحاجة لأن أمر بتجربة حب ، أو أن أعيش هذه المشاعر ، لكى يمكننى تعرف رجل يعانى قصة حب فاشلة .

سألها قائلاً :

ـ كيف ؟

احتفظت بابتسامتها الودود قائلة :

ـ إنها الفطرة ياباشمهندس .. هل نسيت ما قلته عنى الآن ؟

عادت لتجلس فوق أحد الأحجار الضخمة فى مواجهته ، وهى تستطرد قائلة :

ـ حدثنى عنها .

ـ عن من ؟

ـ تلك الفتاة التى أتت بك إلى هذا المكان .

قال لها وقد عادت ملامح الحزن لتكسو وجهه :

ـ أفضل ألا أتحدث عنها .

هزت كتفيها قائلة :

ـ كما تريد .. لكنى أظن أن الإنسان بحاجة لشخص يحادثه عن همومه وأحزانه .. كما أظن أنك لم تتحدث لأحد من زملائك فى الموقع الذى تعمل به ، عن السر الذى تطويه بين جوانحك .. وإلا ما كنت قد جئت بمفردك إلى هنا ، لتجلس الساعات الطوال أمام النبع ، تجتر أحزانك ، وتسترجع ذكرياتك الأليمة .

قال لها بضيق :

ـ هل تعرفين ؟ لقد بدأت تغضبيننى .. لقد حان موعد عودتى إلى موقع العمل .. وأظن أنه يتعين عليك أن تعودى أنت أيضًا إلى منزلك .

قالت له معتذرة وقد اعتراها شىء من الاضطراب :

- أرجوك لا تغضب منى .. فما قصدت إلا أن أخفف من أحزانك قليلاً .

ابتسم قائلاً :

- حسن .. إننى لست غاضبًا منك .

- إذن .. هل تبقى قليلاً ؟

- يتعين على أن أعود إلى عملى الآن .

- هل ستأتى إلى النبع غدًا ؟

- ربما .

- ما دمت لن ترحل غدًا .. فلا يوجد ما يحول دون مجيئك .

نظر إليها قائلاً :

- وأنت .. هل ستأتين ؟

قالت له سريعًا :

- نـ .. نعم .

- إذن .. فسوف آتى .

واستطرد قائلاً :

- وربما أخبرتك عن الفتاة التى جاءت بى إلى هنا .

* * *

٢ - الحزن النبيل ..

انصرفت وقلبها يرقص بين ضلوعها طربًا .. وأخذت تقفز فى الهواء كطفلة صغيرة تلهو وتمرح .. إذ أحست بأن الحياة تُظهر لها وجهًا مختلفًا لأول مرة ، منذ أن جاءت إلى هذا المكان .

وأن الأثر الذى تركته فى نفسها رؤيتها لهذا الشخص أول مرة .. لم يكن مجرد شعور عابر .. بل إن القدر خطط ودبر لهذا اللقاء ؛ ليعوضها عن حرمان السنين الماضية .

فإحساسها الأول نحوه .. نما وتزايد حينما التقت به وتحدثت إليه ، وتملكها شعور غامض بأن كلاً منهما ينتمى إلى الآخر .

نعم .. إن إحساسها يتزايد بأن هذا الشخص ، هو فارس أحلامها الذى طالما تمنته ورأته فى أحلام يقظتها .. وخيالاتها .

وما أسعد المرء حينما يرى حلمًا جميلاً يتحقق فى

واقعه .. وخيالاً عاش به سنوات طويلة يتحول إلى حقيقة .

لكن سرعان ما انقبضت أسارير وجهها ، عندما تذكرت ما قاله لها عن رحيله القريب .

إن هذا يعنى أن حلمها سيتبدد فى وقت قصير .. وأن الحرمان الذى عاشته وتقبلته ، سيتحول بعد فترة وجيزة إلى واقع كئيب وحرمان أكبر ..

ماذا ستفعل بدونه إذا رحل ؟

توقفت وقد غمرها إحساس بالخوف من المستقبل . وأخذت تتساءل فى حيرة عن السر المختفى وراء هذا النوع من المشاعر الإنسانية ؟

لقد التقت بإنسان منذ دقائق .. لكنها أحست بأنه يملأ عليها عالمها كله .. وأن هذه الدقائق القليلة توازى عمرًا عاشته .

وها هى ذى تخشى على سنوات عمرها القادمة أن تحياها بدونه .

فما معنى هذه المشاعر والأحاسيس ؟ وأى ساحر هذا الذى استولى على كيانها ، وفجر كل هذه المشاعر والأحاسيس التى لم تحسها من قبل ؟ أيكون هذا هو الحب الذى قرأت عنه فى الروايات ؟

إن روايات الحب العصرية تنكر الأحاسيس من النظرة الأولى ، لكن ما معنى هذه الأحاسيس التى تحسها إذن ؟ وهل هذا هو الحب أم أنه شىء آخر ؟

تنبهت على صوت أبيها وهو يناديها .. قائلاً :

- (سلوى) .. لماذا تأخرت هكذا ؟

أجابته بارتباك ، وقد اعتراها إحساس فتاة تحاول أن تخفى سرها على أبيها لأول مرة فى حياتها :

- كان الجو صافيًا ، ونسمات الهواء عليلة لدى النبع .. فآثرت البقاء لبعض الوقت .

سألها باستغراب قائلاً :

- ما سر تعلقك بالذهاب إلى النبع هذه الأيام ؟

قالت له وقد ازداد ارتباكها :

- لاشىء .. إننى فقط أرتاح للجلوس بين أشجار النخيل المجاورة للنبع .. خاصة فى هذه الأيام الحارة .

- لم أكن أراك ترحبين بالذهاب إلى هناك بصورة متكررة هكذا مثل هذه الأيام .

قالت له بحزن :

- وهل وجدت مكانًا آخر أذهب إليه لأسرى عن نفسى عدا هذا المكان ؟

حركت كلمات الفتاة شجون الأب ، وأعادت إليه إحساسه بالذنب ، لما يفرضه على ابنته من حرمان .. بوجودها معه فى هذا المكان ، فقال لها وفى صوته ما ينم عن إحساسه بذنبه نحوها :

ـ يا بنيتى إن المنطقة هنا حولنا بعيدة عن العمران .. وأنا أخاف عليك من ..

قالت له بنبرة هادئة :

ـ لا تخش علىَّ من شىء يا أبى .. لقد ألفت المكان هنا .. وكل الأشخاص القلائل الذين يمرون هنا ، يعرفوننى ويعرفونك ولن يمسنى أحدهم بسوء .

لكن لماذا غادرت المزرعة ؟

ـ لقد قلقت عليك بسبب تأخرك كل هذا الوقت .. فجئت لأبحث عنك .

ـ إذن هيا بنا نعود لمواصلة العمل .

قال الأب وهو يحيط كتف ابنته بذراعه محاولاً التسرية عنها :

ـ كلا .. لا مزيد من العمل اليوم .. سآخذك ونذهب معًا إلى المدينة ، ونقضى بعض الوقت فى النادى هناك .

قالت له ابنته ، وهى تقدر محاولته التخفيف من إحساسها بالوحدة والملل :

ـ كلا يا أبى .. لا داعى لذلك .. فأنا أفضل العودة إلى المنزل .

ـ لا بأس ما دامت هذه هى رغبتك .. على أية حال ، لقد أعددت لك طعامًا رائعًا .. دعينا نلتهمه معًا .. ثم نخلد إلى الراحة بقية اليوم .

كانت الفتاة بحاجة لأن تخلو إلى نفسها ، حتى تعيش هذه الأحاسيس الجميلة التى تمتعت بها منذ قليل ، وهى بصحبة (عماد) .

لقد خلَّف لها هذا اللقاء عالمًا سحريًا تؤثر أن تستمتع بكل لحظة فيه .

نعم .. إن الأوقات السعيدة قليلة فى حياتها .. لذا عليها أن تنعم بهذه السعادة .

فلتنس مخاوفها بشأن رحيله .. ولتنس ما يمكن أن يطرأ على حياتها إذا ما فارقها بعد أن عرفته .

ولتنس حتى تلك الفتاة التى استولت على قلبه ، وشغلت تفكيره ، على نحو يجعل فرصتها ضئيلة فى أن تحوز قدرًا من مشاعره واهتمامه .

فلتنس كل شىء .. ولتفكر فقط فى تلك اللحظات السعيدة التى التقت خلالها به ، وتستعيد حديثه معها ، ونظراته إليها .. ووجوده بجوارها ، وتلك المشاعر الغامضة التى احتوتها وهى معه .

★ ★ ★

كان جالسًا فى مكانه المعتاد بجوار النبع .. وعاد قلبها ليخفق بشدة حينما رأته .

وكان مجيئها إلى هذا المكان مختلفًا عن المرات السابقة .

فلم يعد هو ذلك الرجل الذى كانت ترقبه خلسة ، من فوق الربوة المطلة على النبع .

إنه هذه المرة .. الرجل الذى تحدثت إليه ، وحرك لديها أحاسيس لم تعرفها من قبل .

لقد جاءت إلى النبع كما لو كان هذا هو موعدها الغرامى الأول .. أو هكذا أرادت أن توهم نفسها ، وهى تغادر منزلها فى طريقها للقائه .

ابتسم حين رآها .. ونهض مرحبًا وهو يصافحها قائلاً :

ـ ظننت أنك لن تأتى .

ابتسمت قائلة :

ـ لقد وعدتك .

دعاها للجلوس قائلاً :

ـ فى الحقيقة .. لقد كنت أستمتع بهدوء المكان وسكينته ، كما كنت أستريح لانعزاليتى هنا ، بعيدًا عن رفقة زملاء العمل ، لكن بعد أن ظهرت أنت فى هذا المكان .. وتحدثنا معًا .. أصبح هذا ثقيلاً على نفسى .. ووجدتنى أتوق إلى رؤيتك .

ـ كنت أخشى أن أكون قد اقتحمت عليك عزلتك .

ابتسم قائلاً :

ـ لا تنسى أننى أنا الذى فاجأتك وأنت رابضة فوق هذه الربوة .

قالت له بصوت خافت :

ـ لقد أخفتنى .

ـ آسف .. إذا كنت قد فعلت ذلك .

رانت بينهما لحظة من الصمت قبل أن يسألها قائلاً :

ـ هل واجهت صعوبات فى العودة إلى منزلك ؟

ـ كلا .. لقد التقيت بأبى فى الطريق .

ـ وهل أخبرته عن لقائنا ؟

- كلا .

- لماذا ؟

خفضت بصرها وهى تضغط على أصابعها ، دون أن تقدم له جوابًا .

فعاد ليسألها قائلاً :

- لا بد أنك خشيت أن يعنفك لجلوسك مع رجل غريب فى هذا المكان المنعزل .

قالت له سريعًا :

- أبى لم يعنفنى قط ..

- لكن فى مثل هذه الحالة ، لا بد أنه كان سيفعل ذلك .. لو كنت مكانه لتصرفت على هذا النحو .

- لكن أبى يثق بى .

- إن ثقته بك لا تعنى أن تمتد ثقته للآخرين ، فكل أب يخاف على أبنائه .. خاصة فى منطقة نائية كهذه .

نظرت إليه قائلة :

- لكننى لا أخاف منك .

بادلها نظراتها قائلاً :

- أنصحك ألا تمنحى ثقتك للآخرين بمثل هذه السهولة .

- أيمكننى أن أدعوك باسمك مجردًا من الألقاب ؟

- بالطبع .. يمكنك ذلك .

قالت له وفى عينيها فضول شديد :

- (عماد) .. ما هو السر الذى يختفى وراء عينيك الحزينتين ؟

نظر إليها قائلاً :

- يا لك من فتاة فضولية !

أطلق زفرة قصيرة .. وهو يتناول حجرًا صغيرًا .. ليلقى به فى مياه النبع ، قائلاً :

- لقد أحببت فتاة عرفتها حبًا جمًا .. وكنا على وشك أن نرتبط معًا .. ظننت أنها تبادلنى الحب .. ولم أتصور حياتى بدونها .

لكن تطلعاتها المادية ، كانت أقوى من أى ارتباط ، وأكبر من أى عاطفة ، لذا ألقت بارتباطنا وراء ظهرها ، لدى أول عرض قدم لها من شخص ثرى ، قادر على تحقيق أحلامها المادية .

وفضلت الفيلا والسيارة ذات الطراز الحديث والملابس الباهظة الثمن ، على أحلام الحب الوردية التى آمنت بها بسذاجة .

واستطرد قائلاً فى سخرية تنطوى على قدر من المرارة :

- وهكذا كانت النهاية .. وهكذا طلبت أن آتى إلى هذا المكان طلبًا للابتعاد عن أى شىء يذكرنى بها ، محاولاً التغلب على صدمة حبى الفاشل .

صمت برهة وهو يحدق فى مياه النبع .. ثم نظر إليها قائلاً ، ومازالت نبرة السخرية المريرة واضحة فى صوته :

- قصة متكررة .. لا بد أنك قد قرأت عنها كثيرًا ، فى تلك الروايات التى تحتفظون بها فى منزلكم .. أليس كذلك ؟

أنا أيضًا قرأت مثل هذه الروايات ، ولم أستسغ كثيرًا تلك المواقف الدرامية التى وردت بها .

لكن من سخرية القدر ، أننى أعيش الآن أحد هذه المواقف .

سألته قائلة وهى تشعر نحوه بتعاطف حقيقى :

- وهل نجحت المحاولة ؟ أعنى محاولتك التغلب على مشاعرك تجاه هذه الفتاة ؟

عاد ليحدق فى مياه النبع ، دون أن يجيبها ..

فقامت من جواره ، وابتعدت عنه خطوتين ، وهى تحدق فى مياه النبع بدورها قائلة :

- أظن أنه لم يكن هناك داع لكى أسألك هذا السؤال ، فما دمت مستمرًا فى المجىء إلى هذا المكان .. ومادامت تلك النظرة الحزينة مازالت ساكنة فى عينيك .. فأنت لم تنسها بعد .

نهض بدوره قائلاً :

- لقد عاهدت نفسى على نسيانها .. وسوف أفعل ذلك .. مع مرور الزمن سأنجح فى أن ألفظها من حياتى تمامًا .

- لن يتحقق ذلك بالهرب إلى مكان منعزل كهذا .. والاستسلام لذكريات حبك لها وخيانتها لك .. لا بد أن تمارس حياتك بشكل طبيعى ، وأن تساعد نفسك على النسيان ، لكى تنجح فى ذلك .. فالوحدة لا تجلب سوى الشقاء .

قالت جملتها الأخيرة بحماس حقيقى .

تأملها قائلاً :

- إنك تتحدثين بما يفوق عمرك .. وبقدر من الحكمة لم يحظ به الكثيرون ممن عاشوا تجارب عديدة .. وتمرسوا فى الحياة .

قالت له وهى تعقد ذراعيها أمام صدرها ، مستندة بظهرها إلى إحدى أشجار النخيل :

- لقد تعلمت الحكمة من الحياة هنا .. ثم من أخبرك أنني لم أعش تجربة مماثلة ؟

سألها :

- هل حدث هذا بالفعل ؟

قالت له سريعًا :

- لا تشغل بالك بما أقول .

ثم استطردت قائلة :

- هل تعرف .. أظن أن هذه الفتاة لم تكن تستحقك بأية حال من الأحوال ؟ وأنه يتعين عليك أن تشكر القدر الذى أبعدها عن حياتك .

- أحيانًا أقول لنفسى ذلك .. لكن مرارة هجرها لى مازالت هى الأقوى فى نفسى .

قالت وهى تنظر إليه بتعاطف حقيقى :

- إننى أقدر مشاعرك .. لكن صدقنى ، من الأفضل لك أن تلفظها من حياتك كما قلت .. فهذه الفتاة لا تستحق حزنك النبيل .

تأمل وجهها الهادئ قائلاً :

- هل تعرفين ؟ لقد كنت محقة حينما طلبت منى أن أبوح لشخص ما بما فى نفسى ، فقد ارتحت كثيرًا بالحديث إليك .

ابتسمت (سلوى) قائلة :

- إن هذا يدخل السرور على نفسى .

نظرت إلى ساعتها قائلة :

- لقد تأخرت ، يتعين علىَّ أن أذهب الآن حتى لا يقلق أبى علىَّ .

سألها قائلاً قبل أن تفارقه :

- هل سأراك غدًا ؟

أومأت له برأسها .. ثم ابتعدت ، وقد تأكدت أن مشاعرها تزداد تعلقًا به يومًا بعد آخر .

* * *



٤ - اغفــر لى ..

توالت اللقاءات بينهما .. ولاحظ الأب ما طرأ على ابنته من تغيير ، منذ أن التقت بـ (عمـاد) .. فبدأت علامات التساؤل والحيرة تبدو واضحة على وجهه ..

كان سعيدًا على أية حال وهو يرى إشراقة وجهها .. وتلك الحيوية والنضارة اللتين طرأتا عليها ، لكنـه لم يكن مرتاحًا لذهابها اليومى المتكرر إلى النبع .

وذات يوم وجدها تتأهب كعادتها للذهاب إلى النبع ، فى الموعد الذى اعتادته .. فسألها قائلاً بنبرة جادة :

- إلى أين أنت ذاهبة ؟

أجابته قائلة :

- إلى النبع .

قال لها :

- ألا ترين أن مسألة ذهابك إلى النبع هذه قد تكررت بصورة أكثر من اللازم ؟

قالت له بصوت خافت :

- أنت تعرف أننى أرتاح للذهاب إلى هذا المكان .
- لا تنسى أن لدينا عملاً هنا فى المزرعة .
- إننى لن أغيب أكثر من ساعة واحدة .

قال لها الأب وهو يعقد ذراعيه خلف ظهره :

- (سلوى) .. من هو هذا الشخص الذى تلتقين به كل يوم لدى النبع ؟

فوجئت (سلوى) بأنـه يعرف سرها .. فتلعثمت قائلة :

- شخص .. أى .. شخص .. إننى ..
- هل ظننت أنك تستطيعين إخفاء ذلك طويلاً ؟

إن المكان هنا غير مزدحم ، بحيث يمكنك إخفاء أسرارك ولقاءاتك المستترة عن العيون .

- إننى لم أرتكب أى خطأ يمكن أن يسىء إلىّ أو إليك .
- إذن بماذا تبررين خداعك لأبيك ، ولقاءك مع هذا الشاب دون علمه ؟
- لم يكن بيننا سوى مجرد حوارات .. وكنت أنتظر الوقت المناسب لأطلعك على ذلك .

قال لها بسخرية تمتزج بالغضب :

ـ الوقت المناسب.. وما هو الوقت المناسب فى رأيك ، لكى تخبرى أباك بما يدور من خلف ظهره ؟

قالت له وقد آلمها أن يتحدث عنها على هذا النحو :

ـ لقد خشيت أن تمنعنى من الالتقاء به لو علمت بالأمر .

قال لها محتدًا :

ـ وإلى متى كنت تظنين أنك تستطيعين إخفاء هذا الأمر عنى ؟

إن لى عينين تريان .. ولم أغفل مطلقًا عما طرأ عليك من تغيير منذ أن تكررت مرات ذهابك إلى النبع .

لقد تتبعتك ورأيتك وأنت تلتقين بهذا الشاب .. ولولا احترامى وإعزازى لك ، لفاجأتك بظهورى ، ولكان لى معك شأن آخر .

وصمت برهة ليسيطر على انفعاله ، قبل أن يسألها قائلاً :

ـ منذ متى وأنتما تلتقيان ؟

أجابته وهى خافضة الرأس :

ـ منذ خمسة أيام .

ـ وما هى الظروف التى جمعت بينكما ؟

ـ لقد وجدته جالسًا بجوار النبع وحدث اللقاء بيننا مصادفة .

سألها قائلاً :

ـ وما الذى أتى به إلى هذا المكان ؟

ـ إنه مهندس بترول يعمل فى موقع قريب من هنا .

فاجأها بسؤاله قائلاً :

ـ هل تحبينه ؟

ارتبكت ولم تستطع أن تقدم له جوابًا .

اقترب منها ليمسك بذراعيها ، وهو يقول لها بصوت خافت :

ـ عليك أن تعرفى أنك تعنين بالنسبة لى الكثير .. فأنت بالنسبة لى لست مجرد ابنة فقط .

أنت تعنين بالنسبة لى عالمى كله .. لقد استغنيت بك عن الدنيا وما فيها .. ورضيت بالحياة معك فى هذا المكان المنعزل ، لأبعدك عن شرور البشر ، وأنشئك على أفضل صورة تمنيتها ، وعلى كل القيم والمعانى النبيلة التى أومن بها .. ويجحدها الآخرون .

تطلعت إليه وفى عينيها نظرة عتاب قاسية .. وقد

وجدت فى نفسها الجرأة لأول مرة على مواجهته قائلة :

ـ كلا يا أبى .. لا تغالط نفسك .. لقد جئت إلى هنا هربًا من الماضى ، وأملاً فى النسيان .

نسيان أمى .. المرأة التى أحببتها وهجرتك .. وأخلصت لها وباعتك .

جئت إلى هذا المكان النائى أملاً فى أن تطيب جروح قلبك ، وأن تتخلص من تجربة حب فاشل .. وسنوات السجن التعيسة ، وأحلامك التى تسربت من بين يديك .

هذه هى الحقيقة .. وهذا هو السبب الذى أتى بك إلى هذا المكان .

تهالك الأب فوق أحد المقاعد ، وقد ارتسمت على وجهه ملامح التأثر قائلاً :

ـ كفى .

لكنها استطردت قائلة :

ـ كلا يا أبى .. لابد أن أكمل .. إننى أقدر المعاناة التى عشتها .. وأحترم أحزانك .. كما أعرف مقدار حبك وتعلقك بى .. وهذا هو ما جعلنى أستمر فى البقاء معك هنا .

لكن لا بد أنك تقدر أن هذا قد حدث على حساب أشياء كثيرة حرمت منها .

وإنى أشاركك الاقتناع بسوء اختيارك للإنسانة التى أحببتها وتزوجتها بلا ذنب اقترفته ، فما ذنبى فى كل ما جرى بينك وبين أمى ؟

ما ذنبى لكى أحرم من حقى فى مواصلة تعليمى ، والحصول على شهادة جامعية ، وحقى فى مصادقة فتيات فى مثل سنى .. حقى فى اللهو والمرح .. وارتياد المحلات والشوارع .. وممارسة حياة اجتماعية طبيعية ؟

لقد كان ثمنًا قاسيًا يا أبى ، فرضت علىَ أن أدفعه معك بلا ذنب منى ، حتى إننى لا أدرى .. هل جئت بى إلى هنا لأنك تحبنى حقًا أم لأنك أردت أن تنتقم من أمى فى شخصى ؟

تقلصت ملامحه وهو يقول لها بصوت واهن :

ـ (سلوى) .. ماذا تقولين ؟ أنا أنتقم منك يا بنيتى ؟ أنا أنتقم منك وأنت بسمة الأمل الوحيدة فى حياتى !!

انتقم من نفسى ؟ من اللمسة الحانية فى دنياى ؟

جلست إلى جواره .. وقد تحركت عاطفتها نحوه قائلة :

ـ آسفة يا أبى .. لم أقصد أن أؤذى مشاعرك .. لقد أردت فقط أن أعبر عما يجيش بصدرى .

قال لها الأب بصوت يعبر عن إحساسه بالندم :

ـ بل معك حق يا بنيتى .. لقد ظلمتك باستبقائك معى هنا .

قالت له (سلوى) وهى تتناول يديه بين يديها فى حنان :

ـ بل ظلمت نفسك منذ البداية ، حينما ظننت أن الوحدة والعزلة والتخلى عن كل مظاهر الحياة الاجتماعية ، هو الحل الأمثل للتخلص من آثار الماضى .

لماذا لا تبيع المزرعة .. ونرحل عن هذا المكان ، لنبدأ حياتنا فى مكان آخر ؟

إلى أية مدينة من المدن الكبيرة .. القاهرة .. الإسكندرية .. الإسماعيلية .

نختلط بأناس جدد ، ونمارس عملاً آخر ، ونشارك فى مجالات اجتماعية مختلفة .

بل لماذا لا تفكر فى الزواج من امرأة فاضلة ؟

نظر إليها بدهشة قائلاً :

ـ الزواج ؟!

أجابته قائلة :

ـ نعم .. من حقك أن تفكر فى الزواج يا أبى .

ـ بعد هذا العمر الذى وصلت إليه ؟ وبعد التجربة التى مررت بها مع أمك ؟ مستحيل .

ـ لماذا ؟ إنك لست طاعنًا فى السن .. ولا يوجد ما يحول بينك وبين أن تعيش بقية حياتك مع إنسانة فاضلة .. تناسبك .

أما عن تجربتك السابقة ، فلا يمكن أن تبقى مسيطرة على بقية حياتك .

قال لها بأسى :

ـ لم يعد فى العمر بقية يابنيتى .

قالت له بجزع :

ـ لا تقل ذلك يا أبى .

ابتسم محاولاً التخفيف من ملامح التأثر التى بدت على وجهها ، وقد ربت بيده على وجنتها قائلاً :

ـ لقد كبرت سريعًا يا بنيتى .

سألته قائلة :

- هل تعدنى بأنك ستفكر فيما اقترحته عليك ؟

قال لها مداعبًا :

- قولى .. إنك تريدين التخلص منى .. من عبء ذلك الرجل العجوز ، الذى اضطررت لأن تشاركيه حياته .

قالت له سريعًا وكأنها تنفى عن نفسها إتهامًا :

- أنا يا أبى .. إننى لن أتخلى عنك أبدًا .. سواء بقينا هنا أم رحلنا عن هذا المكان .. فأنت تعرف مقدار حبى لك .

قال لها مبتسمًا :

- دعك منى .. وقولى لى .. ماذا عن ذلك المهندس الذى تقابلينه ؟

وأرجو أن تخبرينى بالحقيقة كاملة دون خجل .. ماذا عن مشاعرك نحوه ومشاعره نحوك ؟

- إنه إنسان رقيق وحساس للغاية .

حينما رأيته أول مرة ، وجدته جالسًا بجوار النبع ، وسحابة من الحزن تظلل عينيه .

كان هذا الحزن المطل من عينيه ، هو الذى جذبنى إليه فى البداية .

وحينما تحدثت معه ، وجدت أن ظروفه متشابهة تمامًا مع التجربة التى مررت أنت بها ، وهذا هو ما جعلنى أتعاطف معه .

فقد جاء إلى هنا هربًا من ذكرى حب فاشل ، وامرأة باعت حبه من أجل أحلام الثراء .

أطلق الأب زفرة قصيرة قائلاً :

- إن القصة تتكرر دائمًا .

وصمت برهة قبل أن يستطرد قائلاً :

- لكنك لم تقولى لى أهم ما فى الأمر .. ما هى حقيقة مشاعرك نحوه ؟ هل تحسين نحوه بالتعاطف فقط ؟ أم أن مشاعرك تنطوى على ما هو أكثر من ذلك ؟

أطرقت (سلوى) فى خجل وقد تضرج وجهها بالاحمرار .

بينما حدجها أبوها بنظرة تنم عن فهمه للحقيقة قائلاً :

- آه .. إن حمرة الخجل على وجهك لا تحول دون الكشف عن حبك له .. فهذا أمر واضح .

واستطرد قائلاً بعد برهة أخرى من الصمت :

ـ حسن .. وماذا عن مشاعره هو نحوك ؟

أجابته قائلة بصوت خافت :

ـ لا أدرى .

قال لها الأب وهو يضع يده على كتفها :

ـ اسمعي يا بنيتى .. إننى لا أريد لمشاعرك أن تخدعك ، فى اختيار الشخص الذى تحبينه ، وتأملين الارتباط به .

ارتعش بدنها لدى سماعها لهذه الكلمة (الارتباط) ..

إن هذا هو أقصى أحلامها .

أن تكون زوجة لهذا الرجل ، وأن تنجب منه أبناء يشاركونهما حياتهما .

استطرد الأب قائلاً :

ـ إن وجودك فى هذا المكان ، لم يتح لك مجالاً واسعًا لممارسة حياة اجتماعية طبيعية كما قلت منذ قليل ، وأنا أقر بذنبى فى هذا الشأن ، وقد تجسم لى هذا الذنب الآن ، حينما اكتشفت فجأة أنك قد أصبحت فتاة ناضجة وجميلة وفى سن الزواج .

فلو كنا قد عشنا فى مكان آخر ، ربما كان مجال الاختيار أمامك فسيحًا عما هو عليه الآن ، ولما كان

هناك ما يدعونى للخوف ، من أن يكون تعلقك بهذا الشخص ، دافعه تلك الحياة المنعزلة التى عشتها ، والحرمان من العاطفة ، وليس اختيارًا قائمًا على أسس سليمة وطبيعية .

قالت له (سلوى) وهى مطرقة الرأس :

ـ صدقنى يا أبى . إننى أشعر بأن لقاءنا كان قدريًا .. وأن هذا الشخص سيصبح هو اختيارى الوحيد ، سواء التقيت به فى صحراء منعزلة ، أو مدينة تضج بالزحام .

صمت الأب برهة وهو يفكر فيما قالته ابنته .. ثم قال لها :

ـ ترى .. أما زال ينتظرك بجوار النبع الآن ؟

نظرت إلى ساعتها ، وقد أدركت أنها قد تأخرت كثيرًا عن موعده قائلة :

ـ لا أدرى .

ـ حسن .. اذهبى إلى هناك .. وإذا وجدته ما زال ينتظرك ادعيه للحضور إلى منزلنا .. وأخبريه بأننى أريد التحدث معه .

أشرق وجهها ، وتراقصت الفرحة فى عينيها وهى تقول له :

ـ حقًا يا أبى ؟

قال لها الأب :

ـ هيا .. لا تضيعى الوقت .. وافعلى ما قلت لك .

★ ★ ★



٥ ـ لا ترحـل ..

كان يستعد للعودة حينما وجدها تأتى مهرولة إليه .. فاستقبلها قائلاً :

ـ لقد تأخرت كثيرًا اليوم ، حتى أننى ظننت أنك لن تأتى .

قالت له بأنفاس لاهثة :

ـ آسفة .. لقد حدث ما عطلنى .

قال لها بنبرات صوته الرخيم :

ـ على أية حال .. الحمد لله على أننى قابلتك اليوم .. فقد خشيت أن أرحل دون أن أودعك .

قالت له وقد تبدلت قسمات وجهها :

ـ تودعنى ؟!

قال لها بهدوء :

ـ نعم .. سأرحل غدًا إلى القاهرة .. فقد انتهى عملى هنا .

تراجعت خطوتين إلى الوراء وهى تحدق فيه ، وسحابة من الحزن تظلل عينيها .

مرّت فترة طويلة من الصمت ، تحاشى خلالها النظر فى عينيها وقد أحس بأن تصريحه لها كان قاسيًا .

ولكن ماذا يفعل ؟ إنه لن يقضى بقية عمره فى هذا المكان .. هى نفسها نصحته بذلك .

لقد بدا وجوده هنا مناسبًا للظروف النفسية التى كان يمر بها فى البداية . لذا اختار بإرادته ، أن يُكلّف بهذه المأمورية التى أتت به إلى هنا ، وجعلته ينتقى هذا النبع ، ليغسل فيه أحزانه .

أما الآن .. فقد سئم المكان ، بالإضافة إلى أن مأموريته قد انتهت حقًا . إنه سيشعر بالأسف لفراق هذه الفتاة الرقيقة .. خاصة بعد أن توطدت بينهما أواصر الصداقة المتينة ، خلال الأيام القليلة التى قضاها فى هذا المكان .

إنه لن ينسى نظرات عينيها البريئتين .. وذكاءها الفطرى .. ومشاعرها الرقيقة المنسجمة تمامًا مع هدوء الطبيعة هنا .

إنه يعرف أنها تميل إليه .. فهذا ظاهر تمامًا فى نظراتها إليه وحديثها معه ، برغم أنها لم تبح له بذلك .

كما لا يستطيع أن ينكر أنه هو الآخر يشعر ببعض الميل نحوها .. ربما على نحو أنساه قليلاً (منى) .

لكن الأمر لا يعدو أن يكون مجرد ألفة .. وصداقة .. ولا يمكن أن تتجاوز ذلك .. على الأقل من ناحيته .

اقترب منها قائلاً :

- إننى مرتبط بعملى فى القاهرة .. وأنا أشعر بأننى سأفتقد كثيرًا جلستنا هذه وحديثنا معًا .

قالت له وهى تكاد أن تنتحب :

- (عماد) .. إننى .. إننى ..

أدارت له ظهرها ، لتخفى عبرتين تساقطتا على وجنتيها قائلة بصوت تخنقه العبرات :

- إننى سأحزن كثيرًا لفراقك .. ولا أدرى ماذا سأفعل بأيامى القادمة بعد أن تغادر هذا المكان ؟

أمسك بذراعها ليديرها إليه وقد آلمه أن يرى تلك العبرات التى تبلل وجنتيها .

تملكته الحيرة .. وقال لها محاولاً التخفيف عنها :

- سيبقى لنا ذكريات الأيام الجميلة التى التقينا فيها هنا .

مسحت عبراتها قائلة :

ـ حقًا أن الأيام الجميلة تنقضى سريعًا .. وأنا التى جئت لكى أدعوك لزيارتنا .

قال لها بدهشة :

ـ زيارتكم ؟!

ـ نعم .. لقد طلب منى أبى أن أدعوك لزيارتنا .

قال لها محاولاً التخفيف من أحزانها :

ـ وما المانع ؟ دعينا نذهب إلى منزلكم الآن .

ـ لا أظن أن وقتك يسمح بذلك .. ربما تريد أن تحزم حقائبك .

ـ ما زال أمامى بقية اليوم ونهار الغد .. هيا بنا .

جلست بجواره فى سيارته الجيب ، حيث انطلقا فى طريقهما إلى المزرعة .

أحس الأب بآلام شديدة فى صدره .. فتناول إحدى الكبسولات ، ثم تمدد على الفراش ، وقد تصبب العرق البارد على جبينه وبدت أنفاسه لاهثة .

إنها الأزمة القلبية التى تعاوده من آن لآخر ، والتى اكتشفها عن طريق الطبيب المتخصص فى المدينة منذ شهر واحد فقط .. لكنها شديدة الوطء هذه المرة .

لقد نجح فى إخفاء أمرها عن ابنته حتى الآن .. لكنه يعرف أن ذلك لن يدوم طويلاً .. وأنها لابد أنها ستعرف يومًا ما .. وإن كان يخشى أن يأتى ذلك متأخرًا .

خفت حدة الأزمة تدريجيًا .. وابتدأت أنفاسه تنتظم من جديد ، لكن أفكاره وهواجسه حول ابنته لم تنقطع .

قال لنفسه وهو يغمض عينيه بأسى :

ـ ابنتى المسكينة ! لقد كنت محقة فيما قلته .. وأنا أعرف أننى حرمتك من أشياء كثيرة .

لكن آن الأوان لتصحيح كل ذلك .

آن الأوان لأعوضك عن كل ما حرمت منه .

آن الأوان لكى أغلق ملف الماضى .. وأطوى أحزانه بكل ما فيها من شقاء ومرارة .. وأفكر فى مستقبل ابنتى وسعادتها فقط ..

إنه يدعو الله أن يمنحه من القوة والصحة ؛ ما يمكنه من تنفيذ ما استقر عليه رأيه .

نعم سينفذ نصيحة ابنته .. سيبيع المزرعة .. وسيرحل معها إلى الإسكندرية أو القاهرة لتنعم بحياة مختلفة .

وإذا كانت تريد الزواج من هذا الشاب الذى التقت به هنا .. ووجد فيه الشخص الذى يستحقها ، فسيبذل قصارى جهده من أجل تحقيق رغبتها .

لقد آن الأوان لتصحيح كل الأخطاء التى ارتكبها فى حق ابنته .

ولأن تأخذ حقها فى الحياة .. ربما سامحته بعد ذلك عن سنوات عمرها التى ضاعت فى هذا المكان الموحش .

وبينما هو مستغرق فى أفكاره سمع صوت السيارة قادمة .. ورأى من خلال النافذة المجاورة لفراشه ابنته قادمة ، وبصحبتها ذلك الشاب ، فنهض متحاملاً على نفسه لاستقباله :

قدمته لأبيها قائلة :

ـ أبى .. أقدم لك المهندس (عماد) .

صافحه الأب مرحبًا وهو يقول :

ـ أهلاً بك يا بنى .. تفضل .

ثم دعاه للجلوس قائلاً :

ـ أعذرنى إذا لم آت لدعوتك لمنزلى بنفسى .. وأننى قد كلفت ابنتى بذلك نيابة عنى .

ـ أشكرك على هذه الدعوة الكريمة .

نظر الأب إلى ابنته قائلاً :

ـ هيا يا (سلوى) أعدى لنا غداء جيدًا .

قال (عماد) :

ـ لا داعى لذلك .

ابتسم الأب قائلاً :

ـ ألا تريد أن تأكل معنا (عيش وملح) ؟

ـ إنه ليشرفنى أن أفعل ، لكنى مضطر للعودة إلى موقع العمل .

قال الأب وهو ينظر إلى ابنته :

ـ على أية حال ، إن الغداء لن يتأخر كثيرًا .. أليس كذلك ؟

إننا سنتناول وجبة سريعة التحضير هذه المرة .. لكن إذا أردت أن تتذوق الأكلات الدسمة .. فعليك أن تزورنا مرة أخرى .

قالت له (سلوى) سريعًا :

ـ لن تكون هناك مرة أخرى يا أبى .. فالمهندس (عماد) سيرحل إلى القاهرة غدًا .

أحس الأب برنة الحزن فى صوت ابنته .

وانتظر حتى انصرافها ليتحدث إليه قائلاً :

- هل ستعود إلى القاهرة غدًا .. حقًا ؟

أجابه (عماد) قائلاً :

- نعم .. لقد انتهى عملى هنا ، ولا بد أن أعود لمقر الشركة .

صمت الأب برهة ، ثم قال له :

هل ترغب فى مشاهدة المزرعة ؟

- كما تشاء يا عمى .

- إذن هيا بنا لنجول معًا .. إنها ستعجبك .

وبينما كانا يسيران معًا فى أرجاء المزرعة .. قال له :

- ما رأيك فى مزرعتى المتواضعة ؟

- إنها جميلة للغاية وأظن أنها تدر محصولاً طيبًا .

- لقد بذلت جهدًا جبارًا منذ أن جئت إلى هذا المكان ؛ لكى أجعلها هكذا .

وصمت برهة قبل أن يستطرد قائلاً :

- ومع ذلك فإننى أنوى بيعها .

سأله (عماد) قائلاً :

- لماذا ؟

- لأننى قررت مغادرة هذا المكان .. إنه لم يعد يناسب فتاة شابة مثل (سلوى) .. ألا تتفق معى فى ذلك ؟

- نعم .. أظن أن وجودها فى هذا المكان يحرمها من أشياء كثيرة ، خاصة وأنها مقيمة هنا إقامة كاملة .

- لقد فكرت كثيرًا فى الأمر .. ووجدت أنه أصبح يتعين علينا أن ننتقل إلى مدينة مثل القاهرة .

- هذا تفكير صائب .. وإن كنت لست بحاجة لبيع المزرعة .. تستطيع أن تكلف شخصًا آخر بإدارتها .

- كلا .. أريد أن أودع هذا المكان نهائيًا .

مرت بينهما برهة من الصمت خلال تجوالهما ، قبل أن يردف الأب قائلاً :

- لقد أخبرتنى ابنتى عن مقابلاتكما عند النبع .. كما أطلعتنى على سر ذهابك إلى هناك .

اعذرنى إذا كنت أقحم نفسى فى أمورك الشخصية .. لكنى أريد أن أعرف ، هل نجح صفاء النبع وسكينة المكان هناك ، فى أن تجعلك تتغلب على حبك لتلك الفتاة ؟

ـ أظن أنها قد خففت كثيرًا من الآثار السيئة لهذا الحب الأحمق .

غمغم الأب قائلاً :

ـ أما أنا فقد احتجت لسنوات طويلة من أجل تحقيق ذلك ، وحتى هذه اللحظة لا أدرى ما إذا كنت قد نجحت أم لا .

قال له (عماد) متسائلاً :

ـ ماذ تعنى بذلك ؟

قال الأب سريعًا :

ـ لا شىء .. لا تشغل بالك بما قلته .. وقل لى ، ما رأيك فى ابنتى ؟

فوجىء (عماد) بسؤاله ، وأحس بالحرج وهو يقول :

ـ ابنتك ؟ إن لديك ابنة تحوز صفات رائعة حقًا .

قال الأب بصراحة مفاجئة :

ـ هذا حقيقى .. وهى تحبك .

ارتبك (عماد) وقد بوغت بما قاله الأب .. فلم يدر ماذا يقول ، بينما استطرد الأب قائلاً :

ـ إنك لم تتوقع أن تقابل أبًا ، يتحدث بمثل هذه

الصراحة عن ابنته .. لكنى لا أحب أن ألف أو أدور حول حقيقة واضحة .

ـ هل أخبرتك بذلك ؟

قال الأب بجدية :

ـ لست بحاجة لكى تخبرنى بذلك .. فأنا أدرى الأشخاص بابنتى ، وأثق بأنها تحبك .. وهذا ما دعانى إلى دعوتك إلى منزلى ، فأنا أريد أن أعرف ما إذا كنت تبادلها نفس المشاعر أم لا ؟

قال له (عماد) :

ـ لقد نشأت بيننا صداقة قوية .. خلال الأيام الماضية .. وأنا لا أنكر إعجابى بابنتك وتقديرى لها .. كما لا أنكر أنها خففت كثيرًا من أحزانى ، لكنى لم أتصور أن تتطور الأمور بالنسبة لها على هذا النحو .

تنهد الأب وهو يتطلع إلى الأفق الممتد أمامه قائلاً :

ـ وماذا كنت تنتظر من فتاة وحيدة محرومة من الحنان والعاطفة ، عندما تلتقى بشاب مثلك ؟

ـ هذا يثبت أن عاطفتها نحوى وليدة ظروف غير طبيعية .

ـ لكنك سمحت لهذه العاطفة أن تنمو بتكرار لقاءاتك معها :

إنك ستعود إلى القاهرة لتمارس حياتك بشكل طبيعى بعد أن عالجت أزمتك هنا ، مخلفًا لها التعاسة .

- أظن أنه بعد مغادرتها لهذا المكان ، وممارسة حياتها بطريقة طبيعية فى مكان مختلف ، بعيدًا عن هنا ، فإنها ستلتقى بشخص ما وفى ظروف أفضل .. سيختلف الأمر بالنسبة لها .

قال له الأب محتدًا :

- قلت لك إنها تحبك ، ولا دخل لأى ظروف فى عاطفتها هذه نحوك ، فحبها لك أقوى مما تتصور .

هدأت حدة الأب قليلاً وهو يقول له :

- آسف يا بنى إذا كنت قد تحدثت إليك بهذا الأسلوب .. وأرجو أن تقدر مشاعر أب ، لم يفز من هذه الدنيا إلا بابنة وحيدة هى كل حياته .. ولا يتمنى شيئًا سوى إسعادها . خاصة إذا كان يشعر بالذنب نحوها ؛ لأنه برغم حبه لها حرمها من أشياء كثيرة ، وأجبرها على أن تشاركه سجنا بلا جريمة .

قال له (عماد) وهو يشعر بالتعاطف معه :

- إننى أقدر مشاعرك وأحترمها .. لكنى لا أعرف ماذا أقول لك ؟ وما هو التصرف الذى يتعين علىَّ أن أفعله ؟

وضع الأب يده على كتف (عماد) قائلاً :

- لا تقل شيئًا .. فلا ذنب لك فى أنك لم تستطع أن تحمل لها نفس المشاعر التى تكنها نحوك .

وأطلق زفرة طويلة مستطردًا :

- مسكينة يا بنيتى .. أعرف أن هذا سيجلب لك الشقاء .. كنت أتمنى أن أراك عروسًا قبل أن أموت .

قال له (عماد) متأثرًا :

- أنا مستعد ..

لكن (سلوى) جاءت قبل أن يكمل جملته لتخبرهم بأنها قد أعدت الطعام ..

تعلقت نظرات الأب للحظة بـ (عماد) قبل أن يذهبا معًا لتناول الغداء .

★ ★ ★



٦ ـ سامحنى يا أبى ..

عاد (عماد) إلى مقر عمله ؛ ليحزم حقائبه استعدادًا للسفر ، وهو مشتت الذهن .. مضطرب التفكير .

أخذ يحدث نفسه قائلاً :

ـ ما هذا الذى كنت أنوى أن أقوله للرجل ؟

لقد كدت أن أخبره بأننى مستعد للزواج من ابنته .

صمت برهة وهو يفكر قائلاً :

ـ ولِمَ لا ؟

ما دمت معجبًا بها ، وأرى فيها الكثير من الصفات والمميزات .. فما هو المانع من زواجى بها ؟

لكن هذا أمر لم يخطر بباله مطلقًا .

نظر من نافذة الكابينة الخشبية التى يقيم بها إلى الصحراء الممتدة أمامه ، وهو يهمس لنفسه قائلاً :

ـ ربما لو أننى أتحت لنفسى الفرصة للتفكير .

هزّ رأسه وكأنه يحاول أن يطرد هذه الفكرة من عقله قائلاً :

ـ كلا .. لا تكن أحمق يا (عماد) .. ماذا ستفعل بفتاة بريَّة لم تنل حظها من التعليم ، ولا دراية لها بالتعامل مع المجتمع والناس خارج هذا الوادى ؟

ثم إننى لا أحمل لها عاطفة حب حقيقية ، برغم إعجابى بها ، وتقديرى لكل المزايا التى تحوزها .

ولكن هل لا بد له من أن يحبها ، لكى يتخذ منها زوجة له ؟

وماذا فعل الحب به ؟ إنه لم يجلب له سوى الإذلال والمعاناة والألم .

لقد أحب (منى) ، لكنها هجرته وأعطت له مثلاً سيئًا عن الحب .

لقد استطاعت لقاءاته مع (سلوى) أن تلهيه قليلاً عن صدمته العاطفية ، وربما لو عاد إلى القاهرة مرة أخرى ، لتجددت آلامه ، وعاد ليفكر فى (منى) مرة أخرى .

ربما لو تزوج من فتاة مثل (سلوى) واصطحبها معه إلى القاهرة لضمن أن يتخلص من هذا الحب وآلامه إلى الأبد .

حاول أن يطرد فكرة الزواج من خياله .. لكنها ظلت تعاوده وتراود ذهنه .

وفجأة وجد نفسه يتوقف عن الاستمرار فى حزم حقائبه ، وقد سيطر عليه إحساس قوى بالذهاب إلى المزرعة .

فوجئ به زميله وهو يستقل سيارة الجيب ، فسأله قائلاً :

ـ (عماد) إلى أين أنت ذاهب ؟

قال له (عماد) وهو مازال تحت تأثير ذلك الإحساس القوى ، الذى تملكه .

ـ سأذهب فى زيارة قصيرة .

قال له زميله بدهشة :

ـ لكن الطائرة التى ستقلنا ستقلع بعد خمس ساعات من الآن .

ـ سأعود قبل إقلاعها .

أوقف السيارة أمام المزرعة .. ثم فتح بابها الخشبى مقتربًا من المنزل ، وما لبث أن سمع صوت بكاء ينبعث من الداخل ، فتوقف عن السير للحظة وهو يسترق السمع .

وما لبث أن طرق الباب الذى كان مفتوحًا .

ودلف إلى الداخل ، ليجد الأب ممددًا فوق فراشه ،

وهو فى حالة يرثى لها ، بينما ابنته تبكى بجواره .

تطلعت إليه الفتاة بعينيها المغرورقتين بالعبرات قائلة :

ـ (عماد) .. إن أبى يموت .

اندفع (عماد) نحو الرجل المسجى على الفراش ليمسك بيده .

كان النبض ضعيفًا .. ووجهه مصفرًا وقد تقاطرت حبات العرق البارد فوق جبينه .

قال لها وقد اعترته حالة من القلق :

ـ إنه مريض للغاية .

قالت له (سلوى) وهى تنتحب :

ـ لقد اكتشفت منذ لحظات أنه مريض بالقلب ، وأنه أخفى عنى ذلك .

لم أعرف ذلك إلا حينما طلب منى إحضار الدواء له ، بعد أن ضاق صدره وعجز عن الوصول إليه .

هل تتصور ذلك ؟ لقد ظل يعمل فى هذه المزرعة عملاً مضنيًا دون أن يترفق بقلبه المريض ، ودون أن يخبرنى بشىء .

لابد أنه كان يشفق علىَّ من أن أعرف الحقيقة .

والآن هأنذى أراه يحتضر أمامى دون أن أملك وسيلة لمساعدته .

فأين هى الوسيلة فى مكان ناءٍ كهذا .؟

هب (عماد) واقفًا وهو يقول :

ـ سأذهب لأحضر له طبيبًا .

لكن أصابع الرجل الضعيفة تعلقت بيده ، وهو يقول له بصوت واهن :

ـ لا داعى لذلك .. فأنا أعرف أن نهايتى قد حانت .

ألقت الفتاة برأسها على صدر أبيها ، وهى تجهش بالبكاء قائلة :

ـ أبى .. لا تقل ذلك .

قال لها الأب بصوت خافت :

ـ (سلوى) .. من فضلك .. اتركينى مع (عماد) بمفردنا .

قالت له وهى لا تستطيع أن تغالب دموعها :

ـ لا يمكننى أن أتركك .. أرجوك يا أبى دعه يحضر لك الطبيب .

قال لها وقد تحشرج صوته :

ـ أرجوك أنت .. افعلى ما طلبته منك .. إننى أريد أن أتحدث إليه بمفردنا .

استجابت (سلوى) لطلب أبيها ، وساعدها (عماد) على النهوض ومغادرة الحجرة .

ثم جثا بجوار الرجل المريض .. الذى نظر إليه بعينين يطل منهما شبح الموت قائلاً :

ـ لقد قُضى الأمر يا بنى .. ليست سوى دقائق قليلة ، وألفظ بعدها أنفاسى الأخيرة .

قال له (عماد) مواسيًا :

ـ لا تقل هذا .. لا يعلم الآجال إلا الله .

قال له الأب بصوت متحشرج :

ـ ونعم بالله يا بنى .. لكن علامات الموت تبدو واضحة أمامى ، وأشعر أن أجلى قد حان .

إننى لا أخشى الموت .. ولكن ما يحزننى هو أننى سأفارق هذه الدنيا دون أن أحقق شيئًا مما تمنيته لابنتى .. ودون أن أعوضها عن البؤس الذى عاشته هنا .

كنت أحلم بأن أحقق لها قدرًا ولو ضئيلاً من السعادة التى حرمت منها قبل أن أفارق الحياة .

أحسَّ (عماد) بتأثر شديد وهو يستمع إلى الرجل المريض .. الذى تشبث بيده قائلاً :

- أرجوك لا تتخل عن ابنتى .. فلا يعلم إلا اللّه ماذا سيكون من أمرها بعد موتى .. وما الذى يمكن أن يحدث لها ، وهى تواجه هذه الحياة القاسية بمفردها ؟ حياة لا تعرف عنها إلا القليل .. حياة لا تعرف البراءة التى تربت عليها .

حينما التقيت بك أحسست بأنك إنسان نبيل ، كما وصفتك ابنتى ، وإننى أستطيع أن أمنحك ثقتى وابنتى وأنا مطمئن إلى أنك سترعاها بعد موتى .

أرجوك عدنى بأنك لن تتخلى عنها .. وألا تتركها تواجه هذه الحياة بمفردها بعد موتى .

خفض (عماد) رأسه قائلاً :

- أعدك بذلك .

تنهد الأب قائلاً بارتياح :

- الآن أستطيع أن أموت مطمئنًا .

قال له (عماد) :

- والآن هل تسمح لى بأن أحضر لك طبيبًا ؟

قال له الأب ، وقد أرخى رأسه فوق الوسادة ، وانفرجت أسارير وجهه :

- لم يعد هذا مهمًا .. المهم أننى مطمئن الآن . إننى قد تركت ابنتى فى أيد أمينة .

ظل الأب متشبثًا بيد (عماد) للحظة .. ثم ما لبث أن تراخت يداه وهوى ذراعه إلى جواره ..

وأدرك (عماد) أن الرجل قد قضى نحبه .

اضطر (عماد) إلى أن يؤجل سفره ، ريثما ينتهى من المشاركة فى دفن الرجل ، الذى طلب أن يتم دفنه بجوار المزرعة حسب وصيته .

واقترب من (سلوى) التى كانت واقفة أمام القبر قائلاً بصوت هامس :

- يكفى هذا .. دعينا نذهب .

قالت الفتاة وهى تتطلع إلى القبر بنظرات ساهمة :

- لقد حرم حتى من جنازة حقيقية .

قال لها (عماد) مواسيًا :

- أظن أنه كان يفضل ذلك .

قالت وعيناها مغرورقتان بالعبرات :

- رحمك اللّه يا أبى .. فقد قاسيت الكثير فى هذه الدنيا .

أمسك (عماد) بيدها قائلاً :

- لقد كنت شجاعة فى مواجهة الموقف حتى الآن ، وأرجو أن تظلى كذلك .

أرجوك .. هيا بنا .

سألته وقد انسابت العبرات فوق وجنتيها :

ـ إلى أين ؟

ستأتين معى .. سنعود إلى القاهرة معًا .

سألته قائلة :

ـ والمزرعة .

ـ سأدبر أمر بيعها .. وأودع ثمنها باسمك فى البنك .

ـ لكن إلى أين سأذهب فى القاهرة ؟ إننى لا أعرف فيها أحدًا ..

ـ ستأتين معى إلى منزلى .

نظرت إليه بدهشة قائلة :

ـ إلى منزلك ؟!

ـ نعم .. وهل تظنين أننى سأتركك فى الطرقات ؟

ـ لكن ..

ابتسم (عماد) فى حنان ومودة قائلاً :

ـ لا تخافى .. قبل أن تدخلى إلى منزلى ، سأكون قد عقدت قرانى عليك .

نظرت إليه بدهشة قائلة :

ـ تقصد أن نتزوج ؟

ـ نعم .. لقد قررت أن أتزوجك .

قالت له وهى تتراجع إلى الوراء :

ـ لكن .. هذا مستحيل .

ـ لماذا ؟

ـ لأننى لا أقبل أن تتزوجنى شفقة بى .

ـ من قال هذا ؟

ـ لو كنت راغبًا فى الزواج منى لقدمت لى هذا العرض من قبل .

لكنك تجد نفسك مضطرًا إليه الآن ، بعد الوعد الذى قطعته لأبى ، وتعاطفًا مع فتاة يتيمة تواجه الحياة بمفردها .. وأنا أرفض الزواج على هذا النحو .

همس لها (عماد) قائلاً :

ـ هذا غير صحيح .. إننى بحاجة إليك قدر احتياجك إلىّ .. كما أننى أحمل بالنسبة لك الكثير من التقدير والمودة .. وأظن أن هذا هو أهم ما يحتاج إليه الزواج .

سألته قائلة :

ـ والحب ؟

صمت برهة وهو يحدق فيها قبل أن يسألها قائلاً :

- (سلوى) .. هل تحبينني حقًا ؟
قالت (سلوى) وهى تدير له ظهرها :
- ليس من اللائق أن نتحدث عن الحب والزواج ، ولم ينقض على دفن أبى سوى ساعات قليلة .
- لقد أوصانى أبوك بك قبل وفاته ، وطلب منى أن أرعاك .
- ولهذا تريد أن تتزوجنى .. عملاً بوصية أبى .
- لا أظن أن هناك وسيلة أخرى ، لرعاية فتاة شابة مثلك ، سوى هذا .
- إذن .. فقد كنت محقة عندما قلت إنك مضطر لهذا الزواج .
- إنك لم تجيبى عن سؤالى الذى طرحته عليك من قبل .. هل أنت واثقة بأنك تحبيننى حقًا ؟
نظرت إليه بتمعن قائلة :
- أظن أنك لست بحاجة لإجابة .
همس لها قائلاً :
- إذن أمنحينى الوقت الكافى لكى أحبك .
- وما الذى يضطرك للزواج من فتاة لا تحبها ؟
- لأننى كما قلت لك أحتاج إليك بقدر احتياجك إلىَ .. ولأنك أفضل فتاة قابلتها فى حياتى .

(سلوى) .. يمكننى أن أكذب عليك ، وأن أخبرك بأننى أحبك .. وأننى أرغب فى الزواج منك لأجل هذا السبب .
لكننى لا أريد أن أكذب عليك .. ولست مستعدًا لخداع هذه البراءة التى أراها فى عينيك .
لكنى أحمل لك الكثير من المشاعر الطيبة فى الوقت الحالى .. ومثل هذه المشاعر لابد أن تنتهى مع مرور الوقت والعشرة بالحب .
سألته (سلوى) قائلة :
- وما الذى يحتاج إليه شخص مثلك من فتاة بسيطة مثلى ؟
- أحتاج إلى الكثير من الحب الذى أراه فى عينيك ، حتى أومن مرة أخرى بأنه ما زال يوجد حب صادق ومخلص فى حياتنا .
واستطرد قائلاً :
- والآن قولى لى ، هل أنت موافقة على زواجنا ؟
قالت له وهى تشعر بارتباك شديد :
- لا أدرى ماذا أقول لك ، إن مشاعرى مضطربة .. ولا يمكننى التحدث عن الزواج مع الظروف التى أمر بها الآن ، وبعد وفاة أبى مباشرة .

ـ إنك ستأتين معى الآن إلى القاهرة ، وهناك يمكنك أن تحددى قرارك .

جلست (سلوى) بجواره وهى تتطلع إلى الأفق الممتد أمامها بعينين حزينتين .

لقد كان حلمها أن تراه وتتحدث إليه .

أما أن يطلبها للزواج فهذا يتجاوز أحلامها .

لو كانت فى ظروف مختلفة عن هذه التى تمرُّ بها الآن ، لقفزت فى الهواء من شدة الفرح .

لكن من أعاجيب القدر ، أن يحادثها عن الزواج يوم وفاة أبيها ، ودمعها لم يجف بعد ، وأن يأتى طلبه للزواج بلا حب .. وبلا مشاعر ، كتلك التى حلمت بها وتمنتها فى سنوات مراهقتها المكبوتة .

إنها لا تدرى الآن .. أتحزن أم تفرح ؟

ولماذا يعتريها إحساس بالذنب ، لأن حزنها على أبيها ليس بالقدر الكافى ؟

وإحساس بالوجوم برغم أن الشخص الذى أحبته منذ أن وقعت عيناها عليه ، هو الذى يطلب الزواج منها الآن ؟

إن مشاعرها مضطربة ، على نحو لا يجعلها قادرة على فهمها ..

نظرت وراءها وهى تبتعد عن المكان الذى عاشت سنوات صباها فيه .. وكأنها تودعه .

بقدر ما أبغضت هذا المكان أحيانًا ، بقدر ما تحس بأنها ستفتقده كثيرًا ، وأنها ستودع معه سنوات البراءة .. وسكون الطبيعة هنا ، كما ستودع أباها .

الأب الذى أحتضنها ومنحها كل ما تبقى من حياته .

ولم يلق منها قبل موته سوى جحود بفضله ، وإصرار على أن تشعره بعقدة الذنب نحوها .

بكت متأثرة وهى تتطلع خلفها قائلة :

ـ سامحنى يا أبى .

★ ★ ★



٧ - عالم جديد ..

تزوج (عماد) من (سلوى) بعد عشرة أيام من وفاة أبيها .. واصطحبها معه إلى أحد الفنادق الكبرى بالإسكندرية لقضاء شهر العسل .

لقد تم زواجهما دون ضجة ، وبلا ليلة عرس حقيقية ، بعد أن اتفقا على ذلك .. نظرًا لظروف وفاة أبيها .. ولأن ذلك قد صادف قبولاً لدى (عماد) ، الذى لم يرحب كثيرًا بإقامة ليلة زفاف كبيرة .. وعندما جمعتهما غرفة واحدة بالفندق ، كانت (سلوى) ما زالت تحت تأثير مشاعرها المضطربة ، وغير قادرة على تحديد أحاسيسها الحقيقية فى هذه اللحظة . أهى سعيدة لأنها تزوجته ؟ أم حزينة لأن ذلك قد تم بعد وقت قصير من وفاة أبيها ؟ ودون وجوده بجوارها ؟

احتوتها هذه الأحاسيس المضطربة ، وهى قابعة فى أحد أركان الغرفة ، دون أن تنزع عنها ثوب العرس بعد .

بينما كان هو قد فرغ من تغيير ثيابه .. ونظر إليها وهى جالسة فى مكانها قائلاً :

ـ لماذا لم تبدلى ثيابك بعد ؟

أطرقت برأسها دون أن تجيبه .. فاقترب منها ليرفع وجهها إليه ، وهو يضع أصبعه تحت ذقنها قائلاً :

ـ أنت مضطربة ، أليس كذلك ؟

هزت رأسها مصدقة على كلامه .

فقال لها بصوت عطوف :

ـ لا يوجد ما يدعو إلى إضطرابك .

رانت بينهما برهة من الصمت قبل أن يستطرد قائلاً :

ـ كنت أظن أنك ستكونين سعيدة هذه الليلة .

قالت له بصوت خافت .

ـ إننى سعيدة بالفعل .

ـ لا يبدو هذا واضحًا عليك .

ـ لقد تزوجنا فى ظروف ..

قاطعها قائلاً بتفهم :

ـ أعرف أنها لم تكن ظروفًا طبيعية .. لكن دعينا نتغلب عليها .

وأحاط كتفيها بساعده فى حنان قائلاً :
- تعالى لأريك ما أحضرته لك من ثياب .
- لى أنا ؟!
قال لها وهو يصطحبها إلى الدولاب المغلق فى الحجرة :
- نعم .. أنت زوجتى الآن ، ولا بد أن أجعلك فى أبهى وأزهى صورة .
طلب منها أن تفتح باب الدولاب ، ففتحته بتردد لتفاجأ بأنواع مختلفة من الثياب الفاخرة .
ارتسمت على وجهها ملامح الذهول وهى تقول :
- ما كل هذا ؟
- إنها ثيابك الجديدة .
قالت له غير مصدقة :
- غير معقول .. كل هذا من أجلى ؟
- وسوف أحضر لك المزيد .
- لكن .. متى أحضرت كل هذا ؟
- لقد رتبت الأمر ، وأحضرت الملابس إلى هنا قبل حضورنا .
لا أدرى ما إذا كنت قد وفقت فى المقاس أم لا ،

لكنى استعنت بثوب قديم من ثيابك التى أحضرتها من المزرعة .. وأرجو أن أكون قد نجحت فى انتقاء ما يتناسب مع مقاييس جسمك الحالية .. وأن يلائمك ذوقى فى الاختيار .
قالت له وهى لا تزال متأثرة بما تراه أمامها ؟
- ذوقك ؟ إننى لم أر ما هو أجمل من ذلك .
لكن كيف لم أشعر باختفاء ذلك الثوب الذى أخذته ، برغم أن ما أمتلكه من ثياب قليل ؟
- لقد دبرت الأمر ليكون بمثابة مفاجأة لك .
- لقد اعتدت على ألا أهتم كثيرًا بما تهتم به الفتيات ، من ارتداء أفخر الثياب ، ومتابعة أحدث خطوط الموضة .
كنت أكتفى غالبًا ببلوزة وبنطلون طوال اليوم ، وأنا فى الوادى .
- ما كان يصلح للوادى .. لا يصلح هنا .
واستطرد قائلاً :
- هيا .. تعالى لأريك ما اشتريته لك من أحذية جديدة .
- هل اشتريت لى أحذية أيضًا ؟

ـ تعالى لترى بنفسك .

تأملت الأحذية الأنيقة التى أحضرها لها زوجها ، وقد تهللت أسارير وجهها قائلة :

ـ إنها جميلة للغاية .

ـ هل أعجبتك حقًا ؟

أحاطت عنقه بساعديها قائلة :

ـ إنك زوج رائع .

ثم ما لبثت أن تنبهت إلى ما فعلته .. فأبعدت ذراعيها وقد تضرج وجهها بالاحمرار من شدة الخجل قائلة :

ـ آسفة .

ابتسم قائلاً :

ـ لماذا تتأسفين ؟ هل نسيت أنك زوجتى ؟

اقترب منها ليقبلها قبلة سريعة على وجنتها قائلاً :

ـ هيا بدلى ثيابك ريثما أطلب العشاء .

انصرف (عماد) من الحجرة ، وتركها وهى شبه حالمة .

إنها لا تصدق أن هذا التحول الذى طرأ على حياتها قد حدث بالفعل ، وأنها انتقلت من ذلك المكان النائى

الذى يلفه الصمت الموحش ، إلى هذه المدينة الكبيرة الصاخبة .

وقد أصبح من حقها ، أن تتأبط ذراع ذلك الرجل الذى أحبته ، والذى أصبح زوجها ، لترتاد معه أماكن مختلفة ومتنوعة ، تختلف عن تلك التى اعتادت عيناها أن تراها كل يوم ، وأن لديها كل هذه الثياب الأنيقة ، والأحذية الجميلة .. وأشياء كثيرة طالما تخيلتها وحلمت بها .

تناولت أحد الأثواب التى أحضرها لها زوجها واحتضنته بين ذراعيها .. وهى تتمايل فى الغرفة كطفلة صغيرة سعيدة .

وتطلعت إلى نفسها فى المرآة وهى تتساءل :

ـ ترى هل بدأت الحياة تبتسم لها ؟

مضت الأيام التالية على (سلوى) زاخرة بكل معانى البهجة والمرح .

لقد تفتحت عيناها مع (عماد) على عالم جديد ، كان مجهولاً بالنسبة لها ، ولم تعرفه من قبل ..

وكان (عماد) يبذل أقصى ما فى وسعه لإسعادها .

لكن أكثر ما كان يزعجها ، هو ذلك الشرود الذى

كان ينتابه من آن لآخر ، ليذكرها بتلك الصورة التى رآته عليها ، وهو جالس بجوار النبع .

أحيانًا كانت تراه .. وكأنه معها بجسده فقط ، بينما روحه تحلق بعيدًا .. فى مكان آخر غير الذى يجمعهما .

كانت تعرف أنها .. وإن كانت قد أصبحت تشاركه حياته ، إلا أنها لم تمتلك قلبه بعد ، وأنه برغم كل مظاهر السعادة والانسجام التى تبدو عليهما كزوجين ، إلا أنها لم تفلح فى أن تجعله يحبها حتى الآن .

لم تكن غاضبة لذلك ، برغم ما يثيره فى نفسها من ألم .. فقد كان هذا هو إتفاقهما منذ البداية .

وكانت تأمل فى أن يتحقق هذا الحب يومًا ما ، مع طول المعاشرة ، ومع كل الروابط الأخرى التى تجمع بينهما .

لكن ما كان يؤلمها حقًا ، هو إحساسها بأنه مازال يفكر فى تلك الفتاة الأخرى التى أحبها .. وأنها مازالت تشغل تفكيره .

إنها أنثى .. وهى تحبه .. وهى أيضًا زوجة .. ولا حيلة لها فى أحاسيس الغيرة التى تنتابها من آن لآخر ، وتنغص عليها حياتها ، وتفسد عليها سعادتها .

نعم .. فقد كانت منزعجة لعدم قدرتها على التأقلم سريعًا مع ظروف حياتها الجديدة .

فقد عاشت طويلاً كفتاة برية ، ليس لديها فكرة واضحة عن التعامل مع تقاليد مجتمع جديد عليها ، ومع قواعد يتعين عليها اتباعها فى تناول الطعام .. وفى التخاطب مع الآخرين .

كما كانت تبدو شديدة الإحساس بالرهبة من اضطرارها لارتياد أجواء غريبة بالنسبة لها .

كان (عماد) يقدر ذلك فى البداية .. ويحاول المحافظة على مشاعرها كلما تعرضت لموقف حرج .. أو ارتبكت إزاء تصرف ما .

لكنه ما لبث أن بدأ يبدى بعض التحفظات على تصرفاتها .

ثم تحولت هذه التحفظات إلى ملاحظات قاسية .

كانت تشعر أحيانًا وكأنه يخجل من تصرفاتها هذه .

وكانت تجتهد فى محاولة تعرّف أساليب التعامل التى يتعين عليها اتباعها .. والسلوك الواجب اتباعه فى مناسبات معينة .. لكن خبرتها المحدودة وخجلها ، كانا يدفعانها إلى الارتباك ، وارتكاب الأخطاء أحيانًا .

مر على زواجهما أكثر من شهر .. وكانت (سلوى) قد انتقلت لتعيش فى منزل زوجها .. وبدأت تتأقلم تدريجيًا مع المناخ الجديد الذى انتقلت إليه .

وذات يوم عاد (عماد) إلى المنزل مبكرًا ، حيث تتأهب لإعداد طعام الغداء لهما .

فلحق بها فى المطبخ ليسألها قائلاً :

ـ ماذا تفعلين ؟

فوجئت بعودته مبكرًا .. فقالت له :

ـ (عماد) .. لقد عدت من عملك مبكرًا .

ابتسم قائلا :

ـ نعم .. لم أستطع الانتظار قبل أن آتى وأنقل إليك هذا الخبر السار .. لقد نلت ترقية فى عملى اليوم .

هللت قائلة :

ـ حقًا .. يا له من خبر سعيد !

قال (عماد) :

ـ لقد وجدت قرار الترقية فى انتظارى اليوم .. هل تعرفين ما الذى يعنيه هذا ؟

ليس مجرد زيادة فى المرتب ، أو وضع مميز فى الشركة .. بل تقدير حقيقى لعملى وجهدى طوال السنين الماضية ..

قالت له وهى تشعر بفرحة حقيقية لأجله :

ـ إنك تستحق كل تقدير يا حبيبى .. إننى سعيدة للغاية من أجلك .

نظر إلى الوعاء الذى أمامها قائلاً :

ـ لكنك لم تخبرينى بعد ، ما هذا الذى تعدينه ؟

أجابته قائلة :

ـ ألم تطلب منى أن أعد لك (كشرى) ؟ إننى أتأهب لذلك .

قال لها معترضًا :

ـ (كشرى) ؟ أقول لك إننى قد نلت ترقية اليوم ، وتخبريننى بأنك تعدين (كشرى) .

ابتسمت قائلة :

ـ أليس هذا هو ما طلبته ؟

ـ لا .. لا .. دعك من هذا . إننا سنحتفل بهذه المناسبة .

ـ كيف ؟

ـ سأدعوك لتناول الطعام فى أرقى مطاعم القاهرة احتفالاً بهذه المناسبة .

ـ لا داعى لذلك .. يمكننا أن نعد أصنافًا أخرى من الطعام هنا .

- كلا .. اسمعى ما أقوله لك .. سنتناول طعامنا فى مطعم أنيق يطل على النيل .. وسنتناول أفخر أنواع الطعام .

- لكن الميزانية لا تسمح :

- فلنتغاض عن الميزانية اليوم .

- إننى مازلت أفضل .....

قال لها مقاطعًا :

- ماذا بك ؟ أكلما دعوتك للذهاب إلى أحد الأماكن العامة تبدين كل هذا الارتباك ؟

- أنت تعرف أننى لا أحسن التصرف فى تلك الأماكن .

- دعك من هذا الهراء .. لابد أن الفترة التى قضيتها هنا قد علمتك الكثير .. هيا اذهبى لارتداء أشيك فستان لديك ، ودعينا نحتفل بهذه المناسبة .

★ ★ ★



٨ - لقاء مع الماضى ..

تلفت (عماد) حوله وهو يهمس لها قائلاً :

- لا تضغطى بالشوكة على قطعة اللحم هكذا .. ألم أعلمك من قبل كيف تمسكين بها ؟ وكيف تغرسين أطرافها فى قطعة اللحم برفق ؟ لماذا تتصرفين على هذا النحو ؟

قالت له بارتباك :

- آسفة .

قال لها وهو ينظر إلى المائدة المجاورة بحرج :

- لا عليك .. إن ارتباكك هو الذى يجعلك تتصرفين هكذا ، فى حين لو حاولت أن تتعاملى مع تلك الأشياء ببساطة ، ستجدينها سهلة وستعتادين عليها ، دون حاجة إلى تكلف .

قالت له وهى تشعر بالذنب :

- إننى أحاول ..

وفى اللحظة التى استعد فيها (عماد) لاستئناف

طعامه ، حانت منه التفاتة إلى إحدى الموائد القريبة .. فامتقع وجهه ، وتوقف عن تناول الطعام فجأة .

لاحظت (سلوى) ما طرأ عليه ، فسألته قائلة بانزعاج :

- ماذا بك ؟

كان يحدق فى فتاة جميلة ترتدى ثوبًا ورديًا ، وتجلس برفقة أحد الأشخاص .

واسترعى انتباهها تلك النظرة المحدقة فى الفتاة .. والتعبير الغريب الذى ارتسم على وجهه ، فسألته قائلة :

- هل تعرفها ؟

قال لها وهو يلقى بفوطة الطعام على المائدة ، دون أن يقدم لها إجابة ؛ وقد تقلصت ملامحه :

- من الأفضل أن ننصرف .

أرشدتها غريزتها إلى أن هذه الفتاة هى (منى) حبه القديم ، لكنها حاولت أن تتجاهل ذلك قائلة :

- لماذا ؟

قال لها محتدًا :

- لأننى لم أعد أرغب فى البقاء هنا .

قالت له وهى تتصنع عدم الفهم :

- هل هذا بسبب تصرفى غير اللائق فى تناول الطعام ؟

- كلا .. كل ما هنالك أننى أشعر ببعض التعب ، وأرغب فى العودة إلى المنزل .

نادى الجرسون سريعًا ؛ لكى يقدم له الحساب ، لكنه لم يسمعه .

بينما قالت له زوجته وهى تحدجه بنظرة فاحصة :

- هل تعرف هذه الفتاة ؟

قال لها بانفعال :

- أية فتاة ؟

- تلك التى أثارت اضطرابك على هذا النحو .

قال لها بارتباك :

- كلا .. إننى .. إننى ....

لكنه لم يكمل جملته ، وازداد اضطرابه حينما رأى الفتاة مقبلة عليهما .

ابتسمت الفتاة وهى تقترب من مائدتهما حيث توقفت أمامه قائلة :

- (عماد) !! غير معقول !! أخيرًا ظهرت .. أين كنت مختفيًا ؟

نهض واقفًا وجبينـه يتصبب عرقًا ، وهو يصافح يدها الممتدة إليه قائلاً :

ـ أهلاً (منى) .

كانت زوجته قد نهضت لمصافحتها بدورها .

بينما نظرات الفتاة تتفحصها فى فضول .

فقدمها إليها قائلاً :

اسمحى لى أن أقدم لك زوجتى .

قالت (منى) وقد ارتسمت ملامح الدهشة على وجهها :

ـ زوجتك ! حقًا؟ يا لها من مفاجأة .

ومـدت لهـا يدهـا مصافحـة وهـى تنظـر إليهـا باستخفاف .

بينما أكمل (عماد) التعارف قائلاً :

ـ المهندسة (منى) .

قالت لها (سلوى) بهدوء :

ـ أهلاً بك .

قال لها (عماد) وآثار الارتباك ما زالت واضحة على وجهه وهو يشير إلى أحد مقاعد المائدة التى يجلس إليها :

ـ تفضلى .

قالت له بنعومة :

ـ ألن أضايقكما ؟

قال لها :

ـ نعم .. تفضلى بالجلوس ..

نظرت إلى (سلوى) بطرف عينها قائلة :

ـ ربما سببت إزعاجًا للمدام .

رسمت (سلوى) ابتسامة باهتة على وجهها وهى تقول لها :

ـ أبدًا .. تفضلى .

جلست قائلة :

ـ على أية حال .. إننـى لـن أجلس معكمـا كثيرًا ، فلا بد أن أعود إلى مـائدتى ، لأن (مدحـت) فـى انتظارى .

نظر (عماد) إلى الرجل الجالس على المائدة قائلاً :

ـ يمكنه أن ينضم إلينا لو أردت .

ـ لا داعى ، لذلك .. فسوف ننصرف بعد قليل .

سألها قائلاً :

ـ هل هو خطيبك ؟

أجابته قائلة :

ـ كلا .. إننى لم ارتبط بأى خطبة ..

وأردفت قائلة :

ـ لكن متى تزوجت ؟

أجابها قائلاً :

ـ منذ شهر تقريبًا .

نظرت إلى (سلوى) قائلة :

ـ إن زوجتك جميلة .

هزّت (سلوى) رأسها قائلة :

ـ أشكرك على هذا الإطراء .

قالت (منى) وهى توجه حديثها إلى (عماد) :

ـ لكن لماذا لم تدعنا إلى زفافك ؟

ـ لقد تم كل شىء سريعًا :

واستطرد قائلاً :

ـ حينما عدت من الوادى الجديد ، وجدت أنك قد تركت الشركة وتقدمت باستقالتك .

ـ لقد انتقلت لشركة أخرى .

ـ لقد ظننت أنك قد تزوجت .

ـ فى الحقيقة .. لم يكن الشخص الذى اخترته مناسبًا .

قال لها بلهجة تهكمية :

ـ مع أننى حينما رحلت ، كان يبدو بالنسبة لك مناسبًا تمامًا .

قالت له وهى ترمقه بنظرة ذات مغزى :

ـ كلنا نخطئ أحيانًا .

ثم عادت لتقول ، وهى تتطلع إلى (سلوى) :

ـ هل زوجتك من القاهرة ؟

أجابها قائلاً :

ـ نعم .. ولكننا ....

قالت لها (سلوى) سريعًا وقد أغضبها أن توجه هذه الفتاة أسئلتها إليه مباشرة متجاهلة وجودها :

ـ لكننا تعارفنا فى الوادى الجديد .

قالت (منى) بدهشة موجهة حديثها إلى (عماد) مرة أخرى :

ـ فى الوادى الجديد ؟ هل هى تعمل هناك ؟

ردت عليها (سلوى) مرة أخرى وبأسلوب أكثر حدة :

ـ لقد كنت أعيش مع أبى هناك ، حيث كنا نمتلك مزرعة صغيرة . ومن فضلك لو أردت أن تستفسرى

عن شىء خاص بى ، فيمكنك أن توجهى السؤال إلى مباشرة .. وأنا قادرة على أن أرضى فضولك ..
ابتسمت (منى) بسخرية قائلة لـ (عماد) .
ـ إن زوجتك حادة الطباع قليلاً .. لكن هذا لا يقلل من جمالها .
ثم نهضت قائلة :
ـ على أية حال ، أنا مضطرة للانصراف الآن .. ولا بد أن نلتقى مرة أخرى .
أومأ (عماد) برأسه دون أن يقول شيئًا .
بينما تحولت (منى) إلى (سلوى) قائلة :
ـ لقد سعدت بلقائك يا مدام .
اكتفت (سلوى) هى الأخرى بإيماءة بسيطة من رأسها دون أن تعقب بشىء .
ـ ظل (عماد) شاردًا وهو يقود سيارته طوال الطريق ، وقد بدا أن هذا اللقاء قد ترك أثرًا فى نفسه .
بينما ظلت (سلوى) تراقبه بطرف عينيها .. وانفعالات شتى تتصارع فى نفسها .. وما لبثت أن قالت له بصوت خافت :
ـ إنها هى .. أليس كذلك ؟

أومأ لها برأسه دون أن يجيب .
قالت له (سلوى) :
إنها لم ترتبط بذلك الرجل الذى تخلت عنك من أجله .. ولم تتزوج بعد .
نظر إليها قائلاً :
ـ ماذا تعنين ؟
ـ أعنى .. أن الفرصة ما زالت سانحة أمامك .
ـ هل نسيت أننى رجل متزوج ؟
ـ من فتاة لا تحبها .
ـ متى تتوقفين عن ترديد هذه الكلمات ؟
ـ لقد بدا عليك الاضطراب حينما رأيتها .
ـ ذلك أمر طبيعى .. فلم أظن أننا سنتقابل فى هذا المكان .
ـ كان لا بد لكما أن تتقابلا يومًا ما .. ما دمتما تعملان فى مهنة واحدة .. ترى ماذا كان شعورك الحقيقى حينما رأيتها ؟
ـ لا داعى لترديد هذه الأسئلة .
ـ لماذا ؟
ـ لأنها تنطوى على قدر من الشك .. ولأنها أسئلة بلا معنى .

واستطرد قائلاً بانفعال مفاجئ :
ـ لماذا نهضت لتحيتها ؟ ألم أخبرك من قبل أنه يتعين على السيدة ألا تنهض لمصافحة أحد ، وأن هذا مخالف لقواعد اللياقة ؟ كان يتعين عليها أن تصافحك وأنت جالسة .
إلى متى سأظل أنبهك إلى مراعاة تلك الأشياء ؟
ـ وإلى متى ستظل توجه لى تلك الملاحظات بتلك الطريقة الجارحة ؟
ـ إننى أحاول أن أعلمك كيف تتعاملين بطريقة اجتماعية لائقة .
ـ لقد تزوجتنى وأنت تعرف أننى جاهلة بتلك الأمور .
ـ وإلى متى ستظلين جاهلة بأبسط قواعد اللياقة ؟
اغرورقت عيناها بالعبرات قائلة :
ـ لماذا تزوجتنى ما دمت تخجل منى ؟
أحس (عماد) بالندم لأنه جرحها على هذا النحو ، فقال لها محاولاً تهدئة انفعالها :
ـ أنا لا أخجل منك .. لكننى أحاول أن أجعلك تتكيفين مع المجتمع الجديد الذى انتقلت إليه .

قالت له (سلوى) وهى تنتحب :
ـ إنك ترانى إنسانة غير جديرة بك .
ـ هذا ادعاء غير صحيح .. وإلا لما تزوجتك .
ـ لقد تزوجنا فى ظروف غير طبيعة .. دوافعها الشفقة والإحساس بالمسئولية تجاه وعد قطعته على نفسك أمام أبى قبل موته .
ـ لقد أخبرتك من قبل بأن حاجتى إليك قدر حاجتك إلىّ .
ـ وما الذى تحتاج إليه منى ؟ النسيان .. نسيان الماضى وحبك القديم ، لكنك لم تنس بعد .. وقد وضح هذا عليك منذ أن رأيت هذه الفتاة .
ـ أرجوك .. دعينا نتوقف عن هذا النقاش .. فليس لدى استعداد لذلك الآن .
كان يبدو متعبًا بالفعل .. وقد تقلصت ملامح وجهه .
وأدركت (سلوى) أنه ما زال واقعًا تحت تأثير هذا اللقاء المفاجئ بحبه القديم .. وصمتت برغم معاناتها .

★ ★ ★

٩ - مشاعر باردة ..

لاحظت (سلوى) ما طرأ على زوجها من تغيير واضح ، خلال الأسابيع التالية لهذا اللقاء .

أصبحت الساعات التى يقضيها بالخارج أكثر من المعتاد .

وعندما يعود إلى منزله ، كان يظل شاردًا .. محلقًا بأفكاره بعيدًا .

لم يعد يبدى اهتمامًا حقيقيًا بها كما كان يفعل .. أو كما كان يفتعل ، بها بات الحوار بينهما قليلاً .. وبدأت تحس بأن صدره يضيق بمثل هذا الحوار .. حتى لو كان بشأن بعض الأمور العادية .

وبإحساس زوجة تحب زوجها .. أدركت أنه يبتعد عن عالمها تدريجيًا ، وأن مشاعره تنجرف وبقوة إلى عالم آخر .

ولا بد أن لهذا الأمر علاقة بحبه القديم .

انتابها شعور قوى بالحزن والأسى .. فها هى ذى أحلامها تعود لتنسحب تدريجيًا .

وها هو ذا الرجل الذى أحبته وتمنته ، وأسعدها بزواجه منها ، يوشك أن يتخلى عنها .. إن لم يكن بجسده وبمشاركته لها حياتها ، فبمشاعره وروحه .

لقد كانت بلهاء عندما ظنت أنها تستطيع أن تدفعه إلى حبها ، وأنه قد تغلب على مشاعره السابقة .

فمن المؤكد أنه ما زال متعلقًا بتلك الفتاة .. وأن حبه لها يمتلك عليه كيانه .

بكت متأثرة ، وقد أحست باكتئاب شديد قائلة لنفسها :

- حتى لو لم تكن هذه الفتاة موجودة فى حياته .. فإن عالمها مختلف تمامًا عن عالمه .

فهو المهندس الأنيق الوسيم ، صاحب العلاقات الاجتماعية المتعددة .. ابن المدينة بصخبها وسلوكياتها .

وهى فتاة برية ، لم تتفتح عيناها على المجتمع إلا منذ فترة وجيزة .. ولم تعتد على سلوكياته .. وما زال أمامها الكثير لكى تتعلمها وتعتادها .

وقد بدأ يضيق حتى من قبل أن يلتقى بهذه الفتاة ، بعدم قدرتها على التأقلم السريع ، مع المناخ الذى اعتاد أن يعيش فيه ويتعامل معه .

استقبلته بلهفة وقد فرحت بعودته المبكرة إلى المنزل قائلة :

ـ إننى سعيدة لأنك عدت مبكرًا إلى المنزل اليوم .

قال لها بجفاء وهو يحل ربطة عنقه :

ـ إننى مضطر للخروج بعد ساعة .

قالت له وقد ارتسمت على وجهها ملامح خيبة الأمل :

ـ إذن فلن تبقى بالبيت .

ـ لقد أقامت المؤسسة التى أعمل بها حفلاً لمجموعة من رجال الأعمال . وأصحاب شركات البترول العالمية فى أحد الفنادق .. وقد دعيت لحضور هذا الحفل .

وبالطبع لا بد أن أذهب لأن هذا الحفل مرتبط بالعمل .

ـ إذن فلن تتناول عشاءك بالمنزل .

أجابها وهو يستعد لدخول الحمام قائلاً :

ـ كلا .. فى الغالب سأتناوله فى الفندق .

سألته قائلة :

ـ هل آتى معك ؟

ـ لا داعى لذلك .

قالت له معاتبة :

ـ فى الأيام الأولى من زواجنا ، كنت تلح فى مرافقتى لك فى مناسبات مختلفة .. أما الآن فلم تعد ترغب فى ذلك .

قال لها بضيق :

ـ نعم .. كنت ألح عليك .. وكنت تحاولين دائمًا التهرب من الخروج معى ، أو مرافقتى إلى مثل تلك الأماكن .. فأنا أعرف أنك لا تميلين إلى تلك الأجواء .

ـ لأننى لم أعتد الذهاب إلى اماكن كهذه .. وعندما أتواجد وسط هؤلاء الأشخاص ينتابنى إحساس بالرهبة والحرج .

قال لها متبرمًا :

ـ نعم .. أعرف ذلك .. لذا أحاول أن أجنبك هذا الحرج .

ـ لكننى مستعدة للخروج معك الآن .

نظر إليها بتمعن قائلاً :

ـ لماذا ؟ ما الذى طرأ ليدعوك إلى ذلك ؟

ـ لأننى أحاول التقارب معك .. وأن أفعل أى شىء يرضيك ، إننى مستعدة للتغلب على خجلى وارتباكى .. وأن أنخرط وسط هؤلاء الأشخاص ، وأتعلم الكثير ، لأننى أحبك .. وأريد أن تكون فخورًا بى .

بدا عليه التأثر للحظة .. ثم قال لها :

ـ إننى أقدر ما تحاولين أن تفعليه من أجل إرضائى .. وأعرف أننى أبدو قاسيًا فى تصرفاتى معك أحيانًا .. وأرجو أن تسامحينى لذلك ..

قالت له وقد اغرورقت عيناها بالعبرات من شدة التأثر .. فهى قد افتقدت هذه اللهجة الحانية منه منذ فترة طويلة :

ـ مهما كان ما أحاول أن أفعله ، فلا يمكننى أن أنسى كل ما فعلته من أجلى .

لقد انتشلتنى من الوحدة والضياع ، ومنحتنى الأمان والدفء والاستقرار .

لقد كنت ضائعة بعد وفاة أبى .. ورضيت أن تتزوج من هذه الفتاة الوحيدة البائسة .. وأن تمنحها اسمك .

ـ لا داعى لترديد هذه الكلمات من آن لآخر .. إننى لا أحب أن أراك تقللين من شأن نفسك .

قالت له وقد جرفتها عاطفتها :

ـ (عماد) .. إننى أحبك .. أحبك أكثر من أى شىء آخر فى هذا العالم .

نظر إليها لبرهة .. ثم قال :

ـ هل تودين أن تأتى معى إلى هذا الحفل ؟

قالت له سريعًا :

ـ نعم .

ـ حسن .. أعدى نفسك للذهاب معى .

رافقته (سلوى) إلى الحفل وهى ترتدى أجمل أثوابها ، وقد تزينت لتبدو فى أبهى صورة .

وحانت التفاتة منه وهى تتقدمه داخل القاعة المكتظة بالمدعوين .

فنظر إليها بإعجاب قائلاً لنفسه :

ـ يا لها من فتاة فاتنة ! إنها تبدو جميلة للغاية اليوم .

تبادل عبارات الترحيب مع المدعوين ، وهو يقدم زوجته إليهم ، حيث سأله أحد زملائه قائلاً :

ـ لقد اخترت زوجة جميلة بالفعل يا (عماد) .. لماذا لم تعرفنا بها من قبل !

ثم وجه حديثه إليها قائلاً :

ـ هل تصدقين يا سيدتى أنه حتى لم يفكر أن يدعونا إلى حفل زفافه ؟

وفجأة سمعا صوتًا يأتى من خلفهما قائلاً :

ـ لست وحدك الذى لم تدع إلى حفل زواجه يا (سمير) .

نظر زميله إليها قائلاً :

ـ من .. (منى) ؟ ما الذى أتى بك إلى هنا ؟

ابتسمت (منى) قائلة :

ـ هل نسيت ، أننا زملاء مهنة واحدة ، وأننى أعمل فى شركة منافسة لكم ؟ لقد جئت لأخطف عملاءكم الجدد .

صافحت (سلوى) قائلة :

ـ يسعدنى أن نلتقى مرة أخرى يا عزيزتى .

ونظرت إلى (عماد) وهى تبتسم فى دلال قائلة :

ـ كيف حالك يا (عماد) ؟

قال لها (عماد) وهو يحاول تجنب نظراتها الجريئة إليه :

ـ الحمد لله .. إننى بخير .

اقترب أحد الضيوف الأجانب ليطلب (سلوى) للرقص .. فأحست بالارتباك وحاولت أن تعتذر .

لكن (منى) تدخلت لتعتذر نيابة عنها قائلة له بالإنجليزية :

ـ إنها تعتذر لك .. لأنها لا تجيد الرقص .. كما لا تجيد الإنجليزية .

قالت (سلوى) وقد أغضبها تدخل (منى) وتحدثها نيابة عنها :

ـ إننى لا أجيد الرقص بالفعل ؟ لأننى لم أتعلمه .. ولم أسع لذلك ، لكننى أجيد التحدث بالإنجليزية .. ربما على نحو أفضل منك .

وتحدثت إلى الرجل بلباقة لتعتذر له وهى تنظر إلى (منى) بتحدٍ .

قالت لها (منى) بنبرة ساخرة :

ـ حسن .. أهنئك على إجادتك التحدث بالانجليزية بمثل هذه الطلاقة .. لكن ما دمت لا تجيدين الرقص .. هل تسمحين لى بمراقصة زوجك ؟

قالت لها (سلوى) وهى ما زالت ترمقها ، بنظرة متبرمة :

ـ كلا .

ساد المكان جو من التوتر ، وبدا (عماد) حرجًا للغاية .. فقال لزوجته بخشونة :

ـ هل ستقررين لى ما أفعله ؟

قالت (منى) بتعال :

ـ يبدو أن زوجتك تجهل الكثير عن قواعد اللياقة .

قالت (سلوى) :

ـ وهل من اللياقة أن تطلب المرأة الرجل لمراقصتها ؟

قال (عماد) لزوجته بغضب :

ـ كفى !

قالت (سلوى) بعناد :

ـ كلا .. يجب أن تفهم هذه الفتاة أن دورها بالنسبة لك قد انتهى ، وأن عليها أن تبتعد عن طريقك ، بعد أن أصبحت رجلاً متزوجًا .

قالت لها (منى) باستعلاء مصطنع :

ـ ما هذا الذى تقولينه ؟ أتظنين أننى أريد أن أخطف منك زوجك ؟

صاحت (سلوى) قائلة :

ـ نعم .. تمامًا كما جئت إلى هنا لخطف العملاء الجدد .

قال لها (عماد) وقد احتقن وجهه من شدة الغضب والخجل :

ـ قلت كفى .. لقد جعلت الجميع هنا ينظرون إلينا .

واعتذر لـ (منى) قائلاً بارتباك :

ـ آسف يا (منى) .

ثم التفت إلى زوجته قائلاً :

ـ هيا .. دعينا نذهب من هنا .

ظل طوال الطريق صامتًا برغم ملامح الغضب التى تكسو وجهه .

وحينما وصلا إلى البيت فجّر انفعاله فى وجهها قائلاً :

ـ ما هذا التصرف الهمجى الذى تصرفته ؟

سألته قائلة دون أن تهتم بانفعاله :

ـ هل كنتَ تعرف أنها ستأتى إلى هذا الحفل ؟

قال لها وقد ازداد انفعالاً :

ـ إننى أسألك عن تصرفك الذى جعلنا أضحوكة أمام الجميع .

ـ وهل كنت تنتظر منى أن أقف مكتوفة الأيدى وهى تحاول استفزازى على هذا النحو ؟

ـ أى استفزاز هذا الذى تتحدثين عنه ؟ لقد حاولت أن تكون لطيفة معك .. لكنك هاجمتها بطريقة تخالف كل قواعد اللياقة .

- إنك تؤيد إذن ما قالته لى .. بدلاً من أن تثور لكرامة زوجتك ، وتتدخل لمنعها من إهانتى ، توجه انفعالك لى أنا ؟

صاح قائلاً :

- أية إهانة هذه التى تتحدثين عنها !

- لقد قالت أمامك إننى جاهلة بقواعد اللياقة .

قال لها منفعلاً :

- لقد كانت محقة فى ذلك .

قالت (سلوى) متألمة :

- هل هذا هو رأيك فىّ ؟

قال دون أن يهتم بملامح الألم المرتسمة على وجهها :

- إن كل تصرفاتك تنم عن ذلك .. أنت لا تكادين تستطيعين التعامل مع هؤلاء البدو والرعاة ، الذين تعرفينهم فى الوادى .

قالت له بتأثر :

- إن هؤلاء البدو والرعاة أفضل بكثير من أشخاص عرفتهم هنا .

انصرف وهو يردد قائلاً بانفعال :

- هذه ليست حياة .. لقد بدأت أمل تصرفاتك وأفعالك .

نادته (سلوى) قائلة :

- هل أنت نادم لأنك تزوجتنى ؟

لكنه لم يجبها .. بل أغلق الباب خلفه وانصرف .

بكت وهى تنظر إلى الباب المغلق قائلة :

- قل لى يا (عماد) .. هل أصبحت نادمًا على زواجك منى ؟

★ ★ ★

نظر (عماد) إلى مياه النيل الممتدة أمامه ، وهو جالس إلى المائدة التى ضمته مع (منى) فى الكازينو الأنيق ، الذى تحيطه الأشجار .. قائلاً :

- لماذا فعلت ذلك ؟

سألته (منى) قائلة :

- ما الذى فعلته ؟

- لقد تعمدت استفزازها .

- بصراحة .. لم أعد أطيق وجودك مع هذه المرأة .

- لا تنسى أنها زوجتى .

- لقد اتفقنا على ألا تبقى زوجتك .. أليس كذلك !

- وقد اتفقنا أيضًا على أن هذا يحتاج بعض الوقت .

- إلى متى يا (عماد) ؟ أنت تعرف أننى أحبك ..

لقد تألمت كثيرًا لفراقك .. وظللت أبحث عنك طويلاً ، وآمل أن نلتقى من جديد لتصحيح كل الأخطاء ، ولم أكن أتصور أنك ستظهر وبرفقتك زوجة أخرى سواى .

قال لها معاتبًا :

ـ ومن الذى تسبب فى ما حدث ؟ من الذى تخلى عن حبنا فى البداية سعيًا وراء أطماع مادية ؟

قاطعته قائلة :

ـ هل ستتحدث عن ذلك مرة أخرى ؟ لقد اعترفت بخطئى وأخبرتك أننى نادمة .. وطلبت صفحك .

وصمتت برهة قبل أن تستطرد قائلة بدلال :

ـ وقد صفحت ، أليس كذلك ؟

ثم عادت لتقول :

ـ المهم الآن أن نصحح الخطأ الذى ارتكبناه .. لا بد أن تطلق هذه الفتاة ، وأن نعود لسابق عهدنا .

إن كلاً منا لا يستطيع أن يستغنى عن الآخر .. والإنسانة الوحيدة التى تصلح أن تكون زوجة لك هى أنا .. وليست تلك الفتاة .

نظر إليها قائلاً :

ـ لكن ما ذنبها لكى أتخلى عنها هكذا ؟ وماذا عن

الوعد الذى قطعته على نفسى أمام أبيها ؟ ثم ماذا تفعل هذه المسكينة لو طلقتها وهى بلا أهل ولا أقارب ؟

قالت له (منى) بانزعاج :

ـ ما معنى هذا الذى تقوله ؟

ـ إن ضميرى لا يطاوعنى على أن أتخلى عنها بهذه الطريقة القاسية .

ـ أليس هذا أفضل من أن تعيش معها بلا حب ؟

ثم إنه أصبح لديها مبلغ لا بأس به فى البنك ، بعد أن بعت لها المزرعة وسلمتها ثمنها .. وهو مبلغ يمكنه أن يوفر لها حياة معقولة ، ولا بد أنها ستلتقى بشخص آخر ...

قال لها مقاطعًا :

ـ إن ما يؤلمنى هو أنها تحبنى .

ـ وأنا أيضًا أحبك .. لكن المهم هو من التى تحبها أنت ؟

نظر إليها (عماد) وعلى وجهه ملامح التردد .. فقد أصبح فى حيرة من أمره .. وهو لا يدرى حقًا .. ما إذا كان لا يزال متمسكًا بحبه لهذه الفتاة الجالسة أمامه ، أم أنّ مشاعره قد بدأت تأخذ وجهة أخرى ؟

ولماذا لبى نداء حبه القديم ، حينما التقى بـ (منى) غافرًا كل ما ارتكبته فى حقه من ذنب ؟ بالرغم من أن أحاسيسه المتقدة ، قد انطفأت جذوتها فى نفسه وهو برفقتها الآن ؟

ثم هل هو الضمير وحده الذى يربطه بـ (سلوى) ويدعوه إلى عدم التخلى عنها ، أم أن هناك مشاعر أخرى تمنعه من ذلك ؟

وفجأة ظهرت (سلوى) أمامهما بعد أن برزت من خلف الأشجار المحيطة بالمائدة .. قائلة له وعلامات الألم ترتسم على وجهها :

ـ لماذا لا تجيبها يا زوجى العزيز ؟ لماذا لا تخبرها بالحقيقة ، وتخبرها من هى الإنسانة التى تحبها ؟

لماذا لا تقول لها إن ما يربطك بى هو العطف والشفقة ، وليس الحب بأية حال من الأحوال ؟ وإنك لا تدرى ماذا تفعل بتلك الفتاة التى جلبتها معك من ذلك المكان النائى .. الذى هربت إليه لبضعة أيام ، كى تنسى هناك ذكريات حبك القديم .

أنا أقول لك .. ما الذى يتعين عليك أن تفعله .. طلقنى يا (عماد) .

نظر إليها وهو ما زال واقعًا تحت تأثير المفاجأة قائلاً :

ـ (سلوى) .. ماذا تقولين ؟

قالت بانفعال وهى تنتحب :

ـ أقول لك .. طلقنى .. طلقنى ..

ثم هرولت مبتعدة عن المكان ، وقد انسابت العبرات على وجنتيها .

★ ★ ★



١٠ - الأحضان الدافئة ..

عاد إلى المنزل وأمارات الخجل مرتسمة على وجهه ، حيث رآها وهى تحزم حقيبتها ، وتتأهب لمغادرته .

قال لها بصوت متلعثم :

- (سلوى) .. أنا .. أنا .....

قالت له بإباء :

- هل نفذت ما طلبته منك ؟

- أعتقد أننا بحاجة لبعض التروى .

- أىّ تروٍّ بعد ما رأيته وسمعتَه .

- إننى أعترف بأننى قد أخطأت فى حقك .. وأننى .....

قالت له :

- لقد شاركتك هذا الخطأ منذ البداية عندما تزوجتك ، وأنا أعرف أنك لا تحبنى ، لكنى كنت مبهورة بك .. وكنت تعنى بالنسبة لى كل العالم الذى حرمت منه .. عالم آخر غير الذى اعتدت أن أراه وأعايشه ..

إنه العالم الذى تنتمى إليه ، والذى نقلتنى إليه عندما جئت بى إلى هنا .

والآن وقد رأيت هذا العالم ، وتعاملت معه ، لم أعد مبهورة به كما تخيلته فى أحلامى .. كما لم يعد يعنينى أن نظل زوجين ، لأنى رأيت العديد من الأشخاص الذين يماثلونك فى هذا المجتمع ، ولا بد أننى سأستطيع أن ألتقى بواحد منهم ، أحبه ويحبنى ، ونتزوج فى ظروف أفضل وأكثر طبيعية من تلك التى فرضت علينا هذه الزيجة .

لذا فلا تدع ضميرك يؤنبك .. ولا تظن أنك ستسىء إلىّ كثيرًا لو انفصلت عنى .

- (سلوى) .. لا تدعى مشاعر الغضب تؤدى بنا إلى الإقدام على قرار قد نندم عليه فيما بعد .

قالت له (سلوى) بمرارة :

- لا أظن أنك ستندم كثيرًا .. لأنك فى أعماقك تتمنى أن تقدم على هذا القرار .. ربما منذ اللحظة التى التقينا فيها .

- هذا ليس صحيحًا .. إننى أقدر مشاعرك ...

قاطعته قائلة :

ـ لو كنت تقدر مشاعرى حقًا ما فعلت هذا بى .. لقد كنتَ واثقة من أنك تلتقى بها ، وأنك مازلت متشبثًا بحبك القديم لها .. وقد لاحظت ما طرأ عليك من تغيير منذ أن التقيت بها فى المطعم .

ربما كنت أستطيع أن أتفهم عدم قدرتك على التغلب على مشاعر حبك القديم .. لكننى لا أستطيع أن أغفر لك جرحك لكرامتى ، وخيانتك لزيجتنا على هذا النحو .

ـ (سلوى) .. إننى .....

حملت حقيبتها ، وهى تتأهب لمغادرة الحجرة قائلة :

ـ إننى سأغادر المنزل الآن ؟

ـ إلى أين تذهبين ؟

ـ لا أعرف فى الوقت الحالى .. لكنى سأُعلمك بذلك خلال اليومين القادمين .. وعليك أن ترسل لى ورقة الطلاق إلى المكان الذى سأحدّده لك .

وسارعت بمغادرة المنزل ، دون أن تنجح محاولاته فى استبقائها .

توجهت إلى فندق صغير وحجزت لنفسها غرفة .

وما إن أغلقت بابها عليها حتى تهالكت فوق أحد

المقاعد ، وانخرطت فى بكاء حار .. لقد عادت كما كانت شريدة خائفة فى هذه الدنيا .

وها هى ذى قد أصبحت وحيدة بدون الرجل الذى تحبه .

ما إن هدأت انفعالاتها قليلاً ، حتى بدأت تتساءل عن مصيرها .

ـ إلى أين تذهب ؟ إنها لن تستطيع البقاء فى هذا الفندق طويلاً ، فالنقود التى أحضرتها معها قليلة ، كما أنها نسيت فى أثناء انفعالها ، وهى تحزم حقيبتها ، أن تحضر معها دفتر البنك ، الذى أودعت فيه ثمن بيع المزرعة .. كما لم تحضر إلا القليل من الثياب .

وأهون عليها ألف مرّة أن تبقى شريدة .. خائفة ، على هذا النحو من أن تعود إلى المنزل مرة أخرى ، لإحضار أشيائها من هناك .

وبينما هى فى حيرتها .. تذكّرت أنها تحتفظ معها بعنوان والدتها .. والذى جلبته معها من المزرعة قبل رحيلها .

كان أبوها مهتمًا برغم ما حدث بينه وبين أمها ، بمتابعة أخبارها .

وقبل أن تغادر المزرعة عثرت بين أوراقه على قصاصات من ورق الجرائد ، التى كان يذهب إلى المدينة لشرائها .. يشير بعضها إلى نجاح شركة المقاولات ، التى أسستها أمها هى وزوجها ، والتى استخدمت فى تأسيسها أموال أبيها .

وفى إحدى هذه القصاصات ، كانت صورة أمها ، وبجوارها زوجها الذى كان يصغرها ببضع سنوات .

وكانت هناك قصاصة أخرى تشير إلى عنوانها فى (مصر الجديدة) .. وفجأة خطر لها أن تذهب للقاء أمها .

نعم .. إنها لا تعرف أحدًا سواها .. وليس لها أى أقارب آخرين يمكنها أن تلجأ إليهم .

ثم إنه كان لديها دائمًا حنين خفى ، يدفعها للتفكير فى هذه الأم ، التى تخلت عنها وهى صغيرة ، والارتماء فى أحضانها ، وإلقاء رأسها على صدرها .. بالرغم من كل ما ارتكبته فى حقها ، وفى حق أبيها من أخطاء .

إنه الحنين الغريزى الغامض ، الذى يربط بين الأبناء والأمهات .

وتساءلت :

- ترى هل أصاب أمها هذا الحنين الغريزى كما أصابها ؟ أم أن عاطفة الأمومة قد أصبحت معطلة لديها .. ولم يعد لها وجود فى حياتها .

تطلّعت إلى صورة أمها فى قصاصة الورق .. كانت لا تزال جميلة برغم أن هذه الصورة مضى عليها عامان فقط .

وبالرغم من بعض التجاعيد التى ظهرت على وجهها ورقبتها .

تأملت الصورة وهى حائرة .

إن غضب السنين الماضية ، والتى تخلت خلالها عنها ، يمنعها من الذهاب إلى هذه الأم ، التى لم تكلف خاطرها بالسؤال عنها طوال هذه السنين .

وحنينها إليها الذى حركته أزمتها الحالية يدفعها إلى البحث عنها ، واللجوء إليها كمأوى وحيد لم يعد لها سواه .

وقرّرت الذهاب إليها .

وقفت (سلوى) متردّدة أمام باب الفيلا الأنيقة التى تقطنها أمها .. وقد تملكتها رهبة شديدة .

وما لبثت أن طرقت الباب حيث فتح لها الخادم .. الذى سألها قائلاً :

ـ أية خدمة ؟

أجابته قائلة :

ـ السيدة (كوثر) موجودة ؟

ـ نعم يا فندم .

ـ من فضلك أخبرها أننى أريد التحدث إليها .

ـ نقول لها من يا فندم ؟

ـ قل لها : صديقة قديمة .

أشار لها الخادم بالدخول قائلاً :

ـ تفضلى يا فندم .

تلفتت حولها مبهورة بمظاهر الثراء التى تحيط بالمكان .

وخفق قلبها بشدة وهى تحاول تمثيل مشهد اللقاء الذى سيجمعها بقلبها .

وتساءلت :

ـ تُرى كيف سيكون استقبالها لها ؟ وما الذى ستفعله حينما تراها ؟

ترى هل ستتعرفها أم أنها لن تتمكن من ذلك ؟

وبعد قليل دخلت عليها الحجرة امرأة فى منتصف العمر ، تبدو موفورة الصحة والحيوية .. وقد ازينت على الوجه الأمثل .

ابتسمت السيدة وهى تصافحها قائلة :

ـ أهلاً وسهلاً .

مدت لها (سلوى) يدًا مرتجفة لتصافحها بها .

بينما دعتها السيدة للجلوس قائلة :

ـ لقد أخبرنى الخادم ، أنك تريدين مقابلتى .. كما أخبرنى أنك صديقة قديمة .. بالرغم من أننى لم أرك من قبل ، ولا أظن أن لى صديقات صغيرات السن هكذا .

قالت لها (سلوى) بتأثر ، وقد أحزنها أن أمها لم تتعرفها :

ـ هل أنت واثقة من أنك لم ترينى من قبل ؟

نظرت إليها الأم بتمعن ، فى حين ظلت (سلوى) تأمل أن تقودها غريزتها إلى التعرف عليها ، حتى لو كانت السنون قد غيرت من ملامحها ، وحولتها من صبية صغيرة حينما تركت أمها ، إلى فتاة شابة حينما تجدد بينهما اللقاء .

قالت الأم بتردد :

- معذرة .. إننى يخيل لى أننى أعرفك .. وإن كنت غير واثقة من ذلك ، ألا تعرّفيننى بنفسك ، وتوفرين علىَّ هذه الحيرة ؟

قالت (سلوى) بصوت متهدّج :

- إننى ابنتك .

ارتجفت الأم وهى تنظر إليها فى دهشة وذهول .. وقد احتواها الصمت للحظات ، عجزت خلالها عن أن تنطق بشىء .

وأخيرًا تحدثت قائلة :

- (سلوى) !؟

انتظرت (سلوى) أن تندفع أمها نحوها لتحتويها بين ذراعيها .. لكنها لم تفعل ذلك .

فعدا نظرة الذهول والتأثر التى بدت على وجهها ، لم تقدم على أى تصرّف آخر ، مما هو متوقع حدوثه فى مثل هذه المواقف .

خيّل إليها للحظة وهى ترى أمها تتأهب للنهوض من فوق مقعدها ، أنها ستهرع إليها لتفتح لها ذراعيها وتحتويها بينهما لتضمها إليها بقوة .

لكنها أحست بأن أمها تريد مقاومة هذه العاطفة الفياضة ، وأن تمنع نفسها من الاستسلام إليها .

وتحقق ظنها عندما رأت أمها تحجم عن النهوض ، وتبقى متشبثة بذراعى المقعد الجالسة عليه .

وهكذا مرّت اللحظة التى كانت تخشاها وترهبها ، دون أن تملأها تلك العواطف الجياشة التى تخيلتها .

وربما كان هذا أفضل .. لأنها هى نفسها لم تكن تعرف كيف يمكنها التعامل مع مثل هذه العاطفة ، بعد أن انقطعت العلاقة بينها وبين أمها طوال السنين الطويلة الماضية .

سألتها أمها قائلة بنبرة لا تخلو من جفاء :

- كيف اهتديت إلىّ ؟

قالت لها (سلوى) ببرود مماثل :

- لم يكن ذلك صعبًا .

- لقد صرت شابة جميلة ، حتى أننى لم أتعرّفك .

- لقد أخبرنى أبى أننى أشبهك إلى حد كبير .

نهضت الأم وهى توليها ظهرها ، متظاهرة بالنظر إلى المرآة قائلة لها :

- وما أخباره ؟ أعنى أباك .

ـ لقد مات .

خيل إليها أن أمها قد تحولت إلى تمثال جامد للحظات ، وهى تحدق فى المرآة .. ثم ما لبثت أن قالت بصوت يغلفه الحزن :

ـ رحمه الله .

والتفتت إليها وقد بدا على وجهها ملامح التأثر الشديد .. ثم قالت لها :

ـ متى حدث هذا ؟

ـ منذ شهرين ونصف تقريبًا .

بدا على وجهها شىء من التردد وهى تقترب من ابنتها .. ثم ما لبثت أن همست لها قائلة :

ـ هل سامحنى على ما فعلته معه ؟

قالت لها (سلوى) وهى تواجهها بنظرة صلبة :

ـ لا أظن ذلك .

أغمضت عينيها وقد آلمها ما قالته ابنتها .. ثم ما لبثت أن قالت وهى تعود لتجلس على المقعد الذى بجوارها :

ـ كنت أتمنى أن يسامحنى قبل موته .

سألتها (سلوى) قائلة :

ـ ولماذا لم تسعى لذلك ؟ لماذا تجاهلت وجوده ووجودى طوال هذه السنين ؟

ثم لماذا تخليت عنه وعنى بهذه الطريقة القاسية ؟

سألتها أمها قائلة :

ـ هل جئت إلى هنا اليوم .. وبعد كل هذه السنين ، لكى تحاسبينى على ما مضى ؟

ـ بل إننى أحاول أن أعرف .

ـ ما الذى تريدين أن تعرفيه ؟ هناك أشياء فى هذه الدنيا يصعب تفسيرها ، وتدينها كل المقاييس الأخلاقية .. لكنها لا تخضع لأى مقاييس أخلاقية ، لأنها تكون دائمًا أقوى من الإنسان .

وكما يصعب تفسيرها .. يصعب الدفاع عنها .

ـ ماذا تعنين بذلك ؟

ـ لقد أحببت .. أحببت الرجل الذى هو زوجى الآن .. فى الوقت الذى لم أحب فيه أباك حبًا حقيقيًا .. هذا هو الأمر ببساطة .

لقد سرت وراء اختيار قلبى .. ولم يستطع أى رادع آخر أن يحول بينى وبين السير وراء هذا الاختيار .

قولى عنى ما تشائين .. قولى إننى كنت مسلوبة الإرادة .. وإننى كنت أمًّا سيئة .. وزوجة جاحدة .. لكن هذا ما حدث .

لقد فضلت أن أتهم بكل الاتهامات البغيضة ، على أن أحيا بجسدى مع إنسان ، فى الوقت الذى أحيا فيه بمشاعرى مع إنسان آخر .

قالت (سلوى) وقد تحركت فى نفسها جراح السنين :

ـ لكن هذا لم يمنعك من الاستيلاء على أموال الشخص الذى لا تحبينه ، والذى كان زوجًا لك فى يوم من الأيام ، لتمنحيها للشخص الذى فضلته عليه .. والذى أصبح زوجك الحالى .. تلك الأموال التى قاسى وشقى من أجل جمعها ، والتى تحيين بفضلها أنت وزوجك فى تلك الرفاهية وذلك الثراء .

صاحت أمها فى وجهها قائلة :

ـ اخرسى .

صاحت (سلوى) بدورها فى وجه أمها قائلة :

ـ أليست هذه هى الحقيقة ؟

انفعلت أمها قائلة :

ـ غادرى منزلى .. هيا اخرجى .

قالت (سلوى) وهى تتأهب للانصراف :

ـ كان من الخطأ أن آتى للقائك منذ البداية .

وهمت بالانصراف .. لكن أمها نادتها بصوت متهدّج قائلة :

ـ (سلوى) .

اقتربت منها وملامح التردّد ما زالت على وجهها ، قائلة وعيناها مغرورقتان بالعبرات ، التى رأتها ابنتها فى عينيها لأول مرة :

ـ كلا .. لا تنصرفى .. فقد تمنيت هذا اللقاء منذ سنين .

ثم اندفعت لتحتويها بين ذراعيها وهى تضمها إليها بقوة ، وهى تبكى قائلة :

ـ لقد افتقدتك كثيرًا يا بنيتى .

بكت (سلوى) بدورها ، وقد تلاشت كل أحاسيسها الغاضبة والثائرة ، وهى بين أحضان أمها قائلة :

ـ وأنا أيضًا كنت مشتاقة لأحضانك الدافئة يا أمى .

★ ★ ★

١١ ـ عــــودى إلىّ ..

تحدثَت أمها إليها قائلة :

ـ لقد بحثت عنك طويلاً يا بنيتى ، ولا أريد منك أن تعتقدى أننى قد أهملتك تمامًا طوال هذه السنين .. لكنى لم أعثر لك أو لأبيك على أى أثر .

روت لها (سلوى) الأحداث التى مرَّت بها منذ أن اصطحبها أبوها معه إلى الوادى الجديد ، وحتى مغادرتها لمنزل زوجها .. وأفاضت فى حديثها بكل مشاعر الابنة التى تحتاج لأن تبث همومها وأحزانها إلى أمها .. وبكل اشتياق السنين التى حرمت خلالها من التعبير عن هذه المشاعر الطبيعية ، فى ظل هذه الظروف التى تمرُّ بها .

وما لبثت أن تهدَّج صوتها وهى تقول لأمها :

ـ إننى بحاجة إليك .

قالت لها الأم وهى تربت على ظهرها :

ـ وأنا لن أتخلى عنك .

مرّت خمسة أيام على وجودها مع أمها فى منزلها .. وكانت الأم خلالها تعمل جاهدة على معرفة الكثير عن الظروف التى مرّت بها ابنتها وعن الفتاة التى أحبها زوجها .. وقد أدركت أن ابنتها تحب زوجها حبًّا عميقًا .

وبرغم مظاهر الحنان التى كانت تبديها أمها نحوها ، محاولةً تعويض سنين الفراق التى باعدت بينهما ، إلا أن (سلوى) لاحظت أنها كانت تبدو أحيانًا مضطربة وحائرة لسبب ما .

كما لاحظت ضعف أمها إزاء زوجها ، وتعاليه عليها أحيانًا ، وما لبثت أن سمعته وهو يتحدَّث إلى أمها ذات يوم قائلاً :

ـ أما زالت هذه الفتاة هنا ؟

قالت له الأم بنبرة خافتة :

ـ وإلى أين تريد منها أن تذهب ؟ إنها لا تعرف أحدًا هنا سواى ؟

قال لها غاضبًا :

ـ هذا .. ليس من شأنى .

ـ لكنها ابنتى .. ولا يمكننى التخلى عنها .

قال لها متهكمًا :

ـ لقد تخليت عنها من قبل .. فما الذى طرأ ؟

قالت له محتدَةَ :

ـ أنت السبب .. هل نسيت أنـك قد اشترطت علىَ ألا أضمها لى بعد أن أخذها والدها ؟ وأنك قد جعلت هذا الشرط مقابل استمرار حياتنا الزوجية ؟

قال لها :

ـ أبوها كان أولى بها .. ثم إننى لم أكن مستعدًا لكى يكون هنـاك مبرّر لوجود أى اتصال بينك وبين زوجك السابق ، مع احتفاظك بهذه الابنة .. فضلاً عن أننى تصوَرت أنك ستنجبين لى أبنـاء يتعين عليك أن تتفرغى لتربيتهم .

قالت له وقد اكتست نبرات صوتها بالحزن :

ـ وها هو ذا قد مات .. ولم يعد لهذه الفتـاة أحـد سوى أمها ، كما أننى لم أفلح فى أن أنجب لك أبناء .. فلا يوجد ما يحول إذن دون بقائها معى .

صاح قائلاً :

ـ كلا .. ليس هذا هو ما اتفقنا عليه .. فلتعد إلى زوجها .. إننى لا أريد بقاء هذه الفتاة هنا .

قالت له وهىَ تخشى أن تسمع ابنتها هذا الحوار :

ـ اخفض صوتك .. لئلا تسمعنا .

علا صوته مرة أخرى قائلاً :

ـ أنا حرٌ فى منزلى .

صاحت الأم فى وجهه قائلة :

ـ لا تنس أنه منزلى أنا أيضًا ومن حق ابنتى أن تعيش فى منزل أمها .. وأن تلجأ إليه فى أى وقت تشاء .

قال لها محتدًا :

ـ منزلك .. هل نسيت أن عقد هذه الفيلا باسمى ، وأن كل محتوياتها ملك لى ؟

ـ لكنك اشتريتها بأموالى .

قال لها ساخرًا :

ـ أموالك ؟! أىّ أموال هذه التى تتحدثين عنها ؟

ـ الأموال التى جعلتك صاحب شركة مقاولات .. وصاحب سيارة فارهة .. وفيلا أنيقة .

قال لها منفعلاً :

ـ لقد صنعت كل هذا بكدّى وجهدى .

ـ وبمالى .

قال لها وهو يعود إلى نبرته التهكمية :
ـ تقصدين بمال زوجك السابق ؟
ـ نعم .. بمال زوجى .. زوجى المسكين الذى ظللت تحوم حول زوجته ، بعد أن نصبت شباكك حولها .. وظللت تهمس كالشيطان فى أذنها ، حتى جعلتها تستسلم لإغرائك ، وتتخلى عن زوجها وابنتها من أجلك .. ثم تسلمك كل شىء لتتصرف وتتحكم فيه كيفما تشاء ، بعد أن حولتها إلى إنسانة مسلوبة الإرادة ، لا تستطيع أن ترفض لك طلبًا .
والحمد للّٰه أنك قد اعترفت بلسانك ، أن هذه الأموال التى صنعت منك صاحب شركة مقاولات ، هى أموال زوجى السابق ، وهذا يعنى أن لابنته الحق فى كل ما ترفل فيه من نعيم .
احتد عليها قائلاً :
ـ لها الحق .. أى حق .. إن كل شىء هنا باسمى .
ـ هذه كانت غلطتى .. لقد كنت غافلة حينما أسلمتك زمام أمرى منذ البداية .. لكن الحمد للّٰه على أننى لم أسلمك شركة المقاولات كما فعلت ببقية أموالى وممتلكاتى الأخرى .

قال لها :
ـ وهل نسيت أننى شريك لك فيها ، وأن لدى توكيلاً بالتصرف فيها وإدارتها على النحو الذى أراه ؟
ـ ماذا تعنى ؟
قال بحدَة :
ـ أعنى أننى أستطيع أن أجردك فى لحظة واحدة من كل شىء ، وأن ألقى بك وبابنتك فى الشارع .
قالت له الأم باحتقار :
ـ يا لك من كلب وضيع !
ما إن استمعت (سلوى) إلى ذلك ، حتى سارعت بجمع حاجياتها وغادرت المنزل دون أن تشعر أحدًا بذلك .
فلم ترد أن تتسبب لأمها فى أيَّة مشكلة .. كما أيقنت أنه لم يعد لها مكان فى هذا المنزل .
سارت (سلوى) فى شوارع المدينة على غير هدى .. وقد عادت إلى سيرتها الأولى .
فكرت فى أن تعود إلى منزل زوجها .. على الأقل لكى تسترد دفتر البنك ، حتى يمكنها الإنفاق على متطلباتها ، والبحث عن مسكن لها .

لكن كبرياءها منعها من ذلك .

وفى أثناء ذلك ، كانت العلاقة قد عادت لتتوطد بين (عماد) و (منى) برغم عدم ارتياحه التام لهذه العلاقة .

وقد أخذت تلح عليه قائلة :

- (عماد) .. لا يمكننا أن نبقى على هذا الوضع طويلاً .. لا بد أن تتخذ موقفًا حاسمًا بشأننا .

- لا بد أن أعثر أولاً على (سلوى) .. لكى ننهى الأمر بيننا .. قبل أن نتخذ أى إجراء بشأننا .

قالت له بضيق :

- إننى لا أفهم .. ما الذى يمنعك من تطليقها ؟ وما الذى يحول دون ارتباطنا ، دون السعى وراء البحث عنها ؟

قال لها وقد ضاق بدوره من إلحاحها :

- لا يمكننى التخلى عنها بهذه الصورة القاسية .. لا بد أن أطمئن أولاً على مصير هذه الفتاة المسكينة . لقد أخبرتك من قبل أننى عاهدت أباها قبل موته على أن أرعاها وأتعهدها بالرعاية .

قالت له منفعلة :

- وإلى متى ستظل أسير هذا العهد بينك وبين أبيها ؟ ثم ما ذنبى أنا فى هذا العهد ؟

لا بد وأن تتخذ موقفًا حاسمًا وسريعًا بشأن زواجنا ، خلال الأيام القادمة ، وأن تنزع هذه الفتاة من تفكيرك تمامًا .

لم يستطع أن يخبرها بأنه لا يستطيع ذلك .. وأنه ليس ضميره فقط هو الذى يحركه للبحث عنها ، وبذل أقصى الجهد للعثور عليها ، ولكن حنينه إليها وافتقاده لها ، يدفعانه إلى ذلك دون أن يدرى ، وأن جزءًا من نفسه يهفو إليها ، ويدعوه إلى التمسك بها .

وفى أثناء ذلك كانت (سلوى) قد استقرّت على العودة إلى الوادى الجديد .

فهو المكان الوحيد الذى تعرفه ، والذى يمكنها أن تلجأ إليه فى الوقت الحالى .

★ ★ ★

وقفت (سلوى) من بعيد ، ترقب المزرعة التى كان يمتلكها أبوها .. وهى تستعيد ذكرياتها القديمة .. وتبتسم بمرارة ، حينما تخيلت أنها ستحصل على السعادة التى تحلم بها لو فارقت هذا المكان .

وها هى ذى قد عادت إلى المكان ذاته حاملة معها تعاستها .

وبينما هى فى وقفتها سمعت صوتًا يناديها قائلاً :

ـ ست (سلوى) .

التفتت وراءها قائلة :

ـ (رابحة) !!

قبلتها (رابحة) بشوق قائلة :

ـ كيف حالك يا ست (سلوى) ؟ لقد اشتقت إليك كثيرًا .

ـ وأنا أيضًا يا (رابحة) .

ـ لكن .. ما الذى جاء بك إلى هنا ؟

ـ سأقص عليك ذلك فيما بعد .. لكن قولى لى .. ما أخبار المالك الجديد للمزرعة ؟

ـ إنه لا يقيم بها كما كان الحال بالنسبة لك ولأبيك رحمة الله عليه ، فهو يقطن بالمدينة .. لكنه يأتى إليها يوميًا وبصحبته المشرف ، ليطمئن على سير العمل بها .

ـ أتعنين أنه عيَن عمالاً زراعيين للعمل بها ؟

ـ نعم .. فهو لم يشتر مزرعة والدك فقط ..

بل عدة مزارع أخرى فى الوادى .. ويقال إنه شخص ثرى .. كما أنه يهدف إلى شراء بعض الأراضى غير المستصلحة هنا ، واستئجار بعض الشباب للعمل بها .

ـ هل يسمح لى بالعمل فى المزرعة ؟

نظرت إليها (رابحة) بدهشة قائلة :

ـ أتريدين أن تعملى فى المزرعة التى كان يمتلكها أبوك ؟

قالت لها (سلوى) وهى تتجاهل نظراتها :

ـ نعم .. وما المانع فى ذلك ؟ إننى بحاجة للعمل .. ولا أعرف أى مكان آخر يمكننى أن أعمل فيه ، سوى هذا المكان .

لقد مارست العمل هنا ، ولدى دراية كاملة بزراعة الموالح .

قالت (رابحة) وقد ازداد استغرابها :

ـ لكن .. ماذا حدث بشأن زواجك ؟ وكيف تتركين زوجك وتأتين للعمل هنا ؟

ـ أرجوك يا (رابحة) لا تسألينى عن شىء الآن .. فقط قولى لى .. هل يمكننى أن أعمل هنا ؟

ـ لا أدرى .. فكل الذين يعملون هنا من الرجال .

- هذا لا يهم .. من فضلك دعينى أبيت لديك الليلة ، وغدًا رافقينى لمقابلة صاحب المزرعة الجديد .

قالت لها وهى فى حيرة من أمرها :

- على الرحب والسعة يا ست (سلوى) .. هذا شرف كبير لنا .

★ ★ ★

اجتاز (عماد) البوابة الأمامية للمستشفى ، وهو ما زال يتساءل عن سر هذه الدعوة الغريبة ، التى تلقاها بالأمس لزيارة سيدة مريضة ، تنزل بإحدى حجرات المستشفى .

لكن الاتصال الهاتفى الذى تلقاه من هذه السيدة ، والذى ألحت من خلاله على ضرورة حضوره ، جعله يوافق على هذه الزيارة .

سأل إحدى الممرضات قائلاً :

- من فضلك أين يمكننى أن أجد الغرفة رقم (١٧) ؟

أجابته قائلة :

- فى الدور الثانى .

صعد إلى الدور الثانى ، حيث طرق باب الحجرة ودخل .. حيث وجد سيدة متوسطة العمر ، راقدة على

الفراش ، وملامح المرض واضحة على وجهها ، فسألها قائلاً :

- السيدة (كوثر) .

نظرت إليه قائلة بإعياء :

- لا بد أنك الأستاذ (عماد) .

أجابها قائلاً :

- نعم .

- أرجو ألا أكون قد أثقلت عليك بطلب زيارتى .

قال لها وهو يجلس على المقعد المجاور لها :

- أبدًا .. أرجو لك الشفاء .

- الحمد لله على كل شىء .. لا بد أنك تتساءل عمن تكون هذه السيدة المريضة ، التى طلبت منك أن تزورها .

قال لها متحرجًا :

- لا أستطيع أن أخفى عليك ذلك .

- إننى والدة زوجتك .

نظر إليها بدهشة قائلاً :

- والدة زوجتى .. لكنها أخبرتنى أن والدتها قد ماتت .

قالت له بأسى :

ـ كانت لها أسبابها التى تدعوها لذلك آنذاك ، لكن كما ترى أننى مازلت على قيد الحياة .. ولم يتذكرنى الموت بعد .. برغم أننى صرت أرجوه ، وربما لحكمة أرادها اللّه .

ـ لكن لماذا أخفت عنى (سلوى) أنك على قيد الحياة ؟

ـ دعك من هذا .. وقل لى ، هل عادت إليك زوجتك ؟

ـ لقد بحثت عنها كثيرًا ولم أجدها .

ترقرقت عبرة فى عين الأم قائلة :

ـ مسكينة يا بنيتى .. ترى أين أنت الآن ؟

ـ هل جاءت إليك ؟

ـ نعم .. لكنها سمعت نقاشًا دار بينى وبين زوجى جرح إحساسها ، وغادرت المنزل على إثره .. فلم يكن راغبًا فى بقائها .

قال (عماد) وقد اعتراه القلق :

ـ لكن .. لماذا لم تحاول الاتصال بى ؟ ولماذا لم تحاولى أنت ذلك من قبل ؟

ـ إن الفتاة شديدة الاعتزاز بكرامتها .. وقد شعرت بأنك لم تعد تريدها ، وأن ما يربطك بها هو عطفك عليها ، وليس رابطة زواج حقيقية .. وبالنسبة لى فقد كنت أنتظر اللحظة المناسبة للاتصال بك والعمل على التوفيق بينكما .

فابنتى تحبك حبًّا جمًّا .. وأظن أنك تبادلها بعض الحب .

ـ لا يمكننى أن أنكر ذلك .

سألته قائلة :

ـ وماذا عن الفتاة الأخرى ؟

ـ هل أخبرتك عن ذلك ؟

ـ ليس هذا فقط .. لقد تحريت عن هذه الفتاة عن طريق مصادرى الخاصة .. وصدقنى إنها لا تصلح لك .

إنها ما زالت تتأرجح بين أنانيتها ورغبتها فى ألاّ تتركك لسواها .. وبين طموحها المادى المتأجج .

وأظن أن الجانب السيئ الذى رأيته منها من قبل ، سيعود للظهور من جديد ، لتقلب حياتك إلى جحيم .

إنها تذكرنى بنفسى حينما كنت فى مثل سنها .

كنت إنسانة أنانية .. مادية .. متقلبة .. مستعدة للتخلى عن كل المبادئ .. وكل القيم ، فى سبيل تحقيق مصلحتى الشخصية واستجابة لهوى نفسى .

والنتيجة هى ما تراه أمامك الآن .

فقدت زوجًا وفيًا مخلصًا .. وحرمت من ابنتى .. وتزوجت من إنسان وضيع .. استولى على كل أموالى وباع كل ممتلكاتى ، ثم فرَّ هاربًا إلى الخارج مع فتاة أخرى بعد أن ألقى لى بورقة الطلاق .

والنهاية كما تراها أمامك الآن .. إنسانة فقيرة ومريضة مصابة بأزمة قلبية ضاع منها كل شىء ، لتدفع ثمن أطماعها وخيانتها .

لقد انتقم اللّه لزوجى السابق ، بعد أن استوليت على كده وعرقه ، وسلمته إلى ذلك الشيطان ، لترتد لى نفس الطعنة التى سددتها لزوجى من قبل .

- أنا آسف لما حدث لك .

- لا تأسف .. فهذا هو ما أستحقه تمامًا .

لقد رويت لك تجربتى لتكون عبرة لك .

ولا تظن أننى أنحاز لابنتى .. لكننى أؤكد لك أن تلك الفتاة الأخرى ، لن تكون لك زوجة صالحة بأية

حال من الأحوال ، وأن (سلوى) هى الفتاة الوحيدة التى تحبك بإخلاص حقيقى ، وأنها الوحيدة التى يمكنها أن تحافظ عليك .. وأن تكون لك نعم الزوجة .. وفى النهاية لك حرية الاختيار .

تنهَّد (عماد) قائلاً :

- إننى أصدقك .. ولكن المهم الآن ، أين أجد (سلوى) ؟

- ألم تخبرك بمكان ما ، يمكن أن تذهب إليه ؟ أو كانت ترتاح إليه ؟

قال لها وهو فى حيرة :

- كلا .. لا أعرف مكانًا تفضله سوى ذلك النبع .

وتنبه من حيرته فجأة قائلاً :

- نعم .. النبع .. أيمكن أن تكون قد ذهبت إلى هناك ؟

- اذهب لتبحث عنها هناك .. ربما عثرت عليها .

قال لها وهو يتأهب لمغادرة الحجرة سريعًا :

- نعم .. سأفعل .

استوقفته الأم قائلة :

- لو التقيت بها أخبرها أننى مازلت أحتفظ لها بحقها فى مال أبيها ، وأننى لم أنس ذلك مطلقًا ، منذ

أن فارقتنى وهى طفلة صغيرة ، كما أن هذا المال هو الشىء الوحيد ، الذى لم أسمح لذلك الرجل الذى تزوجته أن يستولى عليه أو حتى يعلم بوجوده .

وأنها تستطيع أن تستردَ هذا المال وقتما تشاء .. وقد تركت لها رسالة توضح ذلك ، والطريقة التى يمكنها بها الحصول على هذا المال سواء عشت أو مت .

- المهم أن نعثر عليها أولاً .

- ستعثر عليها بإذن اللّه ، إننى أشعر بذلك .

واستوقفته مرة أخرى قائلة :

- وأخبرها بشىء آخر .. قل لها إن أمها تحبها .. وإن حبها لها لم ينقطع أبدًا بالرغم من كل شىء .

أمسك (عماد) بيدها قائلاً :

- سأخبرها .. سأخبرها بكل شىء .. فقط واصلى الدعاء لكى أعثر عليها .

★ ★ ★

هرع (عماد) إلى الواحة وهو يلهث من شدَة الركض .

وكم كانت سعادته حينما رآها جالسة بجوار النبع .. وفى نفس المكان الذى اعتادا أن يجلسا فيه .

كانت شاردة ونظراتها الحزينة تحدق فى مياه النبع

الصافية ، على نفس النحو الذى كانت عليه حينما أتى إلى هذا المكان .

سار على أطراف أصابعه ليقترب منها قائلاً :

- تمامًا .. كما ظننت .. لقد عرفت أننى سأجدك هنا .

هبت واقفة وقد فوجئت به قائلة :

- (عماد) ؟!!

مدَ لها يده قائلاً :

- زوجتى الحبيبة .

تراجعت قائلة :

- لكن .. كيف .. كيف توصلت إلى مكانى ؟

- ابتسم لها قائلاً :

- ألهمنى قلبى .. وباركتنى دعوات امرأة طيبة تحبك .. وتتلهف مثلى لرؤيتك .

إنها أمُك التى تنتظر عودتك معى .

- أمى !!

- نعم .. إنها تحتاج إليك الآن بأكثر من أىِّ وقتٍ مضى .. تمامًا كما أحتاج أنا إلى وجودك فى حياتى مرة أخرى .

- وحبيبتك السابقة ؟

- لم يعد لها وجود فى حياتى .. صدقينى لم يعد لى سوى حبيبة واحدة لم أكن أعرف قيمتها كما أعرفها الآن .. ولم أحس بأننى أفتقدها بشدة إلا بعد أن ابتعدت عنى وهى زوجتى .

قالت له بدلال :

- الفتاة البريَّةُ .

احتواها بين ذراعيه قائلاً :

- برية .. أو متمدينة ، إنها حبيبتى فى شتَّى الأحوال ، ولن أسمحٍ لها بالابتعاد عنى بعد ذلك أبدًا .

وأمسك بيدها قائلاً :

- هيا بنا لنعود إلى المنزل .

لكنها استوقفته قائلة :

- ألا نجلسٍ بجوار النبع قليلاً ؟

ابتسم قائلاً :

- بلى .. فقد اشتقت لجلوسنا معًا فى هذا المكان .. إنه نبع الحب .

★ ★ ★

(تمت بحمد الله)

رقم الإيداع : ٧٨٤٨



سلسلة رومانسية رفيعة المستوى

المؤلف



أ. شريف شوق

السلسلة الوحيدة التي لا يجد الأب أو الأم حرجا من وجودها بالمنزل

نبع الحب

التقيا بجوار النبع ..
كانت زهرة في صحراء
أحزانه ، وكان قطرات ندى بعثت
الحياة في مشاعرها .. تُرى
أيجف نبع الحب ؟ أم يبقى
متدفقًا في قلبيهما ؟

72

الثمن في مصر ١٥٠ ص
وما يعادله بالدولار الأمريكي في سائر الدول العربية والعالم